تفريغ محاضرة

المَنْهَجِيَّةُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ

للشيخ: خالد بن عثمان السبت

فهرس العناوين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

*[1] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين.

وصلى الله وسلَّم على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وَصَحْبه أجمعين، أمَّا بعد:

أيُّها الأحبة فحديثنا عن وَصف الطَّريق إلى العلم الشرعي، الذي به يُعرَفُ المعبود جلَّ جلاله، وبه تُعرَف الطريق الموصِلة إليه، وبه تُعرَف الدار التي يصير إليها الإنسان.

وهذا الحديث أيها الأحبة سينتظم عشر قضايا:

- أما الأولى: لماذا نتعلم؟
- والثانية: في شروط التحصيل.
- والثالثة: في الطريقة الصحيحة في التعلُّم والتعليم.
- والرابعة: بين التَّخصُّص والموسوعيَّة.
- والخامسة: بين التعليم المباشر والتعليم بالوسائط.
- والسادسة: كيف تختار المعلم؟
- والسابعة: كيف نثبّت العلم؟
- وأما الثامنة: أيها المعلم لا تبتئِس!

[1] وهي في جزأين، بداية الجزء الأول، رابط الدرس الصوتي: https://goo.gl/3oimdq

- والتاسعة: أيها المتعلّم لا تيأس!
- والعاشرة: في ذكر قضية مقترحة في سُلَّمِ التعلم.

وقد حاولت أن أختصر ما اجتمع إليَّ مِن مادَّةٍ كنت أجمعها وأكتبها منذ سنين طويلة قد تصل إلى ثلاثة عقود، فحاولت أن أختصرها مرارًا من أجل أن أتمكن من عرضها في هذا المجلس.

• أولًا: لماذا نتعلم؟ ما هو المقصود من العلم؟

فالإنسان أيها الأحبة حينما يُقدم على عمل من الأعمال لا بُدَّ له من هدفٍ محدَّد؛ لأنَّه لا يمكن أن يتعاطى الأشياء عبثًا من غير أمرٍ يَسعى لتحصيله.

✓ العلم عبادة

فأقول نحن نتعلم العلم **لأن الله عز وجل يُحبُّه ويرضاه، فهو عبادة جليلة من أجَلِّ العبادات**، يرفع الله عز وجل أصحابها في أعلى الدرجات، ويُثيبهم الثواب الذي وَصَّفَهُ النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أرى حاجة للتطويل في ذكر الأحاديث الواردة بهذا الباب لأنَّها معروفة.

لكن ينبغي أن يكون لنا فيه نِيَّة، ولهذا كان بعض العلماء يقول: "من أراد أن يأكل الخُبز بالعلم فلتبكي عليه البواكي"؛ فالعلم لا يُطلب من أجل الوظائف، ولا من أجل تحصيل الأموال والدَّراهم، وإنَّما هو أشرف وأجَّل من ذلك كله، فيُراعي الإنسان قَصده ونيته وإرادته،

فيريد وجه الله تبارك وتعالى دون التفاتٍ إلى ما سواه، لا يطلب العلم من أجل الرياء والسُمعة ولا من أجل عرضٍ من الدنيا.

يقول أبو الحَسَنْ القَطَّان –رحمه الله–: "أُصِبتُ ببصري وأظن أني عُوقبت بكثرة كلامي أيَّام الرحلة". الذهبي –رحمه الله– يُعلِّق على هذا يقول: "صدق والله، فقد كانوا مع حُسن القصد وصحة النية، غالبًا يخافون من الكلام وإظهار المعرفة".

يقول علي بن بَكَّار البَصْري: "لأن ألقى الشيطان أحبُّ إليَّ من أن ألقى حُذَيْفَةَ المَرَعَشي؛ أخافُ أن أتصنَّع له فأسقط من عين الله تعالى"، كانوا يُراقبون النِيَّاتِ ويخافون ولا يَتَزَيَّدُون!

✓ العلم للعمل

ثم إنَّ الإنسان أيضًا يطلب العلم **من أجل أن يعمل به**، فلا يصح بحالٍ من الأحوال أن تستوي حال طالب العلم مع حال الجاهل الذي لم يعرف معرفته ولم يدرس دراسته، النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: (**من يُرِدِ الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدين**)، فهذا العلم أو هذا الفقه أو هذا الخير الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم هو الفقه المستلزِم للعمل، كما يقول الحافظ ابن القيِّم: "وأمَّا إن أُريد به مُجرَّد العلم وَحْدَهُ فلا يدل على أن من فُقِّهَ في الدين فقد أُريد به خيرًا".

مجرد معرفة وثقافة واطلاع لا يَعقُبُهُ العمل، فلا يَنكَفُّ الإنسان عن ما حرَّم الله جلَّ جلاله ولا تنهض عزيمته وَهِمَّتُهُ من أجل العمل لمرضاة الله تبارك وتعالى، فما فائدة العلم؟! فهو وسيلة من الوسائل، ليس مقصودًا لنفسه، وإنَّما هو وسيلة يُتوصَّلُ بها إلى العمل.

فالشَّاطِبِي -رحمه الله- يقرر أن كُلَّ ما وَرَدَ في فضل العلم فإنَّما هو ثابتٌ للعلم من جِهَة ما هو مُكَلَّفٌ بالعمل به؛ فهو ليس بمجرَّد صورته هو النَّافع بل: معناه، وإنَّما ينال معناه من تعلَّمَه للعمل، فكلما دَلَّه على فضلٍ اجتهد في نَيلِه، كما يقول ابن الجوزي: "وكلما نهاه عن نقصٍ بالغ في مُباعدته فحينئذٍ يَكشِفُ له العلم سِرَّهُ، وإنَّما المسكين من ضاع عُمره في علمٍ لم يَعمَل به، ففاتته لذَّاتُ الدنيا وخيرات الآخرة، فَقَدِمَ مُفلسًا مع قوة الحُجَّة عليه!"، كما في [صيد الخاطر].

يَنحبس فلا يَخرُج ولا يتنزَّه ولا يجتمع في النَّاس، ويبدأ من أوَّلِ نهاره ثم بعد ذلك يُكابِد الليل في التَّحصيلِ والطلب، ولكن ليس له فيه نيَّة ولا يَعقُبُ ذلك العمل، فهذا شقاءٌ في الدنيا يَعقُبُه شقاءٌ في الآخرة، نسأل الله العافية!

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- من علامات الشقاوة في أمثال هؤلاءِ -أعاذنا الله وإيَّاكُم جميعًا من هذه الأحوال-: "أنَّه كُلَّما زِيد في علمه زِيد في كِبرِه وتِيهه، وكلما زيد في علمه زيد في فَخرِه واحتقاره للناس وحُسن ظَنِّه بنفسه".

هو عارف كل شيء، ولا يحتاج أن ينصحه أحد، ولا أن يُوَجِّهَهُ أحد، ولا أن يَذكُرَ له أحد ملاحظةً أو تصحيحًا أو تقويمًا أو أن يَستدرك عليه خطأ وقع فيه، فيغضب أَشَدَّ الغضب، هذا الإنسان الذي قد انتفش وتعاظم بسبب هذا العلم، إنما كان هذا العلم ضررًا له، كما أن بعض ما يُنبِته الربيع يقتُل حَبَطًا أو يُلِمُّ كما قال المعصوم عليه الصلاة والسلام.

فهذا أيها الأحبة ليس بالأمر الهَيِّن، والإنسان لربما يستمرئ ذلك ويتساهل ويتهاون وَيُفَرِّط، كما نسمع ونشاهد، فإذا أَصَرَّ على ترك ما أُمِرَ به من السُّنَّة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– فقد يُعاقب بِسَلْبِ فِعل الواجبات؛ في البداية يُفَرِّطُ في السنن ويقول: "هذه سنة" ويتفلسف، وقبل ذلك كان يتحرّى، فلما تعلَّم عرف أنها سنة وأن هذا لا يجب، فبدأ يتساهل!

فقد يُعاقب بسلب فعل الواجبات حتى يصير فاسقًا أو داعيًا إلى بِدعة، وقد يفعل ما نهاه الله عز وجل عنه. يقول: "وإن أصر على الكبائر فقد يُخاف عليه أن يُسلب الإيمان، فالسنة كسفينة نوح –صلى الله عليه وسلم– من ركبها نجا ومن تَخَلَّفَ عنها غَرِقَ. وكان السلف –رضي الله عنهم– يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون".

فشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– يُقَرِّرُ هذ المعنى، وأن طالب العالم إن لم يَقترن بطلبه فِعل ما يجب عليه وترك ما يَحرُم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة وإلّا وقع في الضلال.

ويقول: لو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب كان غاويًا، وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالًا.

وقد تخرَّج من هؤلاء كثير في أوقات فُشُوِّ القلم، ولما وقعت الفتنة وأَبْرَزَ دعاة الفتنة والنفاق قُرونهم في هذه السُّنَيَّاتِ، وُجِدَ مَنْ يُمْلِي عليهم من هؤلاء الزائغين، وَيُلَقِّنُهُمْ بعض القضايا والمسائل التي لا يعرفونها ولم يسمعوا عنها، ليتوصلوا بذلك إلى الطَّعن في الدين، وتضييع شرائع

الإسلام، وإبطال مُحكماته بنُقولات نادرة أو بتتبُّع بعض المُشْتَبِهَاتِ من الأحاديث أو الآيات، فتَلَقَّنَهَا وَتَلَقَّاهَا أولئك عنهم، وصاروا يكتبون في الصحف وينشرون ذلك في وسائل إعلامية ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله عن حقائقه التي أرادها الله تبارك وتعالى.

وقد كان يقال: "ما أحسن الإيمان ويزيّنه العِلم، وما أحسن العلم ويزينه العمل، وما أحسن العلم ويزينه الرِّفق، وماُ أضيف شيء إلى شيء مثل حِلم إلى عِلم".

وفي هذا يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: "ما استغنى أحدٌ بالله إلا احتاج إليه الناس، وما عمل أحد بما عَلَّمَهُ الله إلا احتاج الناس إلى ما عنده".

يقول سفيان ابن عيينة: "من عَمِلَ بما يعلم كُفِيَ ما لم يعلم".

وابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: "كان الرَّجل مِنَّا إذا تعلم عشر آيات، لم يُجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن".

وكما يقول الحسن: "كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرَى ذلك في تَخَشُّعِهِ وهَديه ولسانه ويده".

وتعرفون ما جاء عن علي -رضي الله عنه- وسفيان الثَّوْرِي: "يَهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارْتَحَلَ".

ولما سُئِلَ الثوري -رحمه الله-: "طلب العلم أَحَبُّ إليك أو العمل؟ فقال: إنما يُراد العلم للعمل، فلا تَدَع طلب العلم للعمل، ولا تدع العمل لطلب العلم".

وذكر الزُّهري: "مِن غَوائِلِ العلم أن يُترك العمل به حتى يذهب، ومن غوائله النسيان، ومن غوائله الكذب فيه".

وكانوا يستعينون كما يقول الشَّعبي -رحم الله الجميع- على حفظ الحديث بالعمل به، وكانوا يستعينون على طلبه بالصوم؛ لأجل ألَّا يشتغلوا بإعداد الطعام، وأكله، والتَّشاغل به.

ويوصي أبو قِلابَة تلميذَه أيوب السِّختياني -رحم الله الجميع-: "إذا أَحْدَثَ الله لك علمًا، فأحدِث له عبادة ولا يكن همُّكَ أن تُحَدِّثَ به".

وفي هذا يقول المُلائي: "إذا بلغك شيءٌ من الخير فاعمل به ولو مرَّة تكن من أهله".

ولعلنا جميعًا نعرف خبر ذلك الرَّجل الذي بات عند الإمام أحمد -رحمه الله- ليلةً وهو ممن يطلب الحديث، فجاء الإمام أحمد -رحمه الله- ووضع الماء عنده، فلمَّا أصبحَ نظر الإمام أحمد -رحمه الله- إلى الماء فإذا هو كما كان، يعني أنَّه لم يقم من الليل فيتوضأ فيصلي، فقال: "سبحان الله رجلٌ يطلب العلم لا يكون له وِردٌ من الليل!"؛ لأن الإمام أحمد -رحمه الله- كان يعمل بما علِم حتى في الأمور الدقيقة. وكان يقول: "ما كتبتُ حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقد عملت به، حتى مرَّ بي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجَّام دينارًا فاحتجمت وأعطيت الحجَّام دينارًا".

فكانوا يُوصون بالعمل ويرون أنَّه من أسباب حفظ العلم -كما سيأتي-.

ولهذا يقول وكيع بن الجرَّاح -رحمه الله-: "إذا أردت أَن تَحفَظَ الحديث فاعمل به".

يُروى عن الثَّوري: "العلماء إذا عَلِمُوا عَمِلُوا، فإذا عملوا شُغِلُوا، فإذا شُغِلُوا فُقِدُوا، فإذا فقدوا طُلبوا، فإذا طُلبوا هربوا"؛ يعني أنَّهم لا يَتَفَرَّغُوْنَ، ينشغلون، أوقاتهم مشغولة معمورة، لا يكون طالب العلم بطالًا فارغًا، لا يدري أين يذهب، وكيف يقضي هذا المساء!

وكان بِشر بن الحارث -رحمه الله- يقول: "أدّوا زكاة الحديث، فاستعملوا من كل مائتي حديث خمسة أحاديث"، يعني اثنان ونصفًا بالمائة.

فينبغي لطالب العلم -أيها الأحبة-، طالب الحديث، طالب السنة، كما يقول الخطيب البغدادي -رحمه الله-: "أن يَتَمَيَّزَ في عامَّة أموره عن طرائق العوام؛ باستعمال آثار الرسول صلى الله عليه وسلم ما أمكنه، وتوظيف السُّنَّةَ مع نفسه"، فإن الله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١]، فيما يحبه الله عز وجل ويرضاه، ثم بعد ذلك يستوي مع مَن لا علم له ولا عمل ولا بصر!

فهذا فضل عظيم، فينبغي أن نَتَذَكَّرَ هذا المعنى دائمًا، وأن يظهر أثر العلم على سَمْتِنا، وهَدْيِنا، ودَلِّنَا، وأخلاقنا، وأعمالنا، وتعاملنا مع الناس، فيتميَّز طالب العلم؛ من رآه عرف أن هذا طالب علم، أنه إنسان غير عادي، لمجرد ما يراه من بين الناس، هذا الإنسان يختلف عن الآخرين. وَكُلُّ مَن اشتغل بصنعة أو بنوع من العلم فإنه يظهر على وجهه وهديه وسَمته آثار صنعته ولا بد، أدركه من أدركه وغاب عمَّن جهله.

الناس يتفاوتون في هذا الإدراك، كما يتفاوتون في ظهور ذلك عليهم أيضًا لكنه يعرف، فقد تقوى آثاره على الإنسان فيعرفه كل من رآه، وقد تضعف هذه الآثار فيعرفه أهل الفِراسة؛ ولهذا

كان بعض أهل العلم من أهل الفراسة يقول لمن دخل عليه: أنت تشتغل بكذا وأنت تشتغل بكذا، وأخبارهم في هذا كثيرة، -ولعله يكون مجلس مستقل في الكلام عن هذا الموضوع-.

• ثانيًا: في الكلام عن شروط التحصيل

١- تحديد الهدف وماذا تريد؟

نحن نقول أولًا أيها الأحبة: **ينبغي أن نُحدّد الهدف، ماذا تريد؟**

هل تريد أن تتخصَّص في العلوم الشرعية؟ فيكون لك سلّم وطريقة في التعلم، تسير عليه ولا بد، ولا تتعدَّاه ولا تتخطَّاه، وتنتقل من طَوْر إلى طَوْر، من مرحلة إلى مرحلة، حتى تصل.

أو تريد أن تعرف جُملًا من العلم وتقف عند الحَدِّ الواجب؟ أن تعرف ما فَرَضَهُ الله عزَّ وجل عليك في قضايا التوحيد والاعتقاد وفي قضايا العمل؟

أو أن الإنسان يريد أن يَطَّلِعَ وَيَتَعَرَّف على جُمَلٍ من العلم تزيد على ذلك، لكنّه يَقْصُرُ عن درجة طلاب العلم من أهل الاختصاص فيه؟ فهذه لها كتب ومؤلفات وُضِعَتْ لهذا الغرض في شتَّى العلوم.

فمن غير الصحيح -كما سيأتي إن شاء الله- أن نَشْغَلَ الناس دائمًا، نقول لهم جميعًا: "ابدأوا بكتاب [الآجُرُّومِيَّة] مثلًا في النحو ثم [قَطْرُ النَّدى] أو [مُلحة الإعراب]، ثم [شذور الذهب]، ثم [الألفية]"، لا! ماذا يريد هذا الإنسان؟ وقد يُستغنى عن بعض العلوم بالنسبة إليه؛ قد نقول له: لا شأن لك في قواعد الفقه ولا في أصول الفقه أصلًا!، فإن أبى: أعطيناه كتابًا يَصْلُحُ لمثله.

أما أن نَرْسُمُ طريقًا واحدًا ونطالب الجميع بسلوكه، ونفس الكتب! هذا غير صحيح، فلا بد من تحديد الهدف.

٢- المحل القابل

فإذا أراد الإنسان أن يتميَّز في العلم وأن يكون نابغًا فيه: فهذا لا بُدَّ له من شروط، وهناك قُدَرْ قد لا يكون للإنسان يَدٌ فيها، إنما هي مواهب من الله تبارك وتعالى.

وهناك أشياء يمكن للإنسان أن يُطوّرها، وهناك أيضًا ما إذا تَفَطَّنَ إليه الإنسان اللَّبيب، فإنَّه قد يُحصِّل ما لا يُحصِّلُه من أعطاهم الله عزَّ وجلَّ من القدرات ما لم يُعطِهِ.

فالعلم إذا أراد الإنسان أن يكون نابغًا فيه: فهذا لا بُدَّ أن يكون له المحل القَابِل، والمحل القابل: أن يكون عند هذا الإنسان عقل وفطنة وذكاء، وهذه الأمور مواهب من الله تبارك وتعالى.
ولكن كما أن الناس يتفاوتون فيها إلا أن العقل يمكن أن يُطَوَّرَ وأن يُنَمَّى بِبَعْضِ الممارسات، وهذا أمر معلوم؛ لأن العقل منه ما هو فطري ومنه ما هو مكتسب؛ فالإنسان الذي يمارس العلم كثيرًا يرتقي عقله وينمو بخلاف من بَقِي على حاله، وقل مثل ذلك في الأمور الحياتية، الإنسان الذى يسمع تجارب الآخرين، أو يقرأ في التاريخ، أو يستفيد من الآراء، أو يُجَرِّبُ في الحياة كثيرًا، ينمو له من العقل ما لا يكون عند غيره.

والذكاء أيضًا هو أمر يَهَبُهُ الله عزَّ وجلَّ للإنسان، لكن الكثيرين من الأذكياء قد لا يَستفيدون من ذكائهم، بل إن الملاحَظ أن الكثيرين من الأذكياء يُبتَلَون بالكسل، فيكون ذلك مُثَبِّطًا لهم ومَعُوّقًا لهم عن التميز والتَمَهُّرِ، سواءً في العلوم الشرعية أو في غيرها.

ولذلك انظر: كم يتميّز في العلوم، في الرياضيات، في الطب، في الكيمياء، في اللغة العربية، فضلًا عن العلوم الشرعية من الفقه، والحديث، والتفسير، وما إلى ذلك؟

الذين يدرسون في هذه التخصصات كثيرٌ من الأذكياء، لكن كم يتميَّز منهم؟ القلة! فالذكاء وحده لا يكفي.

ولذلك قد يكون الإنسان مُتوسّط الذكاء لكن عنده من الصبر والجَلَدِ والهِمَّةِ ويَسِيرَ على طريقةٍ صحيحةٍ في التَّعَلُّمِ فَتَخْتَصِرُ عليه السنوات الطِّوال فَيُحَصِّل ويتميَّز، ويحصل ما لا يحصله أولئك.

فالذكاء وحده لا يكفي، والعقلُ وحده لا يكفي.

كما أن الإنسان يحتاج إلى **رغبة،** تكون عنده شهوة ورغبة في التحصيل، ويذكرون أيضًا الاكتفاء، بحيث لا يكون هذا الإنسان مشغولًا بطلب لقمة العيش، وليس عنده وقت، يعمل من أول النهار إلى وسط النهار ثم يعمل بعد ذلك إلى الليل، أو يعمل من أول النهار من طلوع الشمس إلى غروبها ويرجع مُنهَكًا. هذا متى يُحَصِّلُ من العلم؟!

ولذلك تَجِدُ بعض الناس أحيانًا يرغبُ أن يكون مُتَخَصِّصًا في العلم الشرعي وهو بهذه الحالة، فهذا أمر لا يمكن!

فَالعِلْمُ أَعْطِهِ كُلَّكَ يُعْطِكَ بَعْضَهُ.

٣- وقت الفراغ وخلوّ القواطع

كما أنه يحتاج إلى **وقت وفراغ** أيضًا، يحتاج إلى **الخُلُوِّ من القواطع المُذهِلة** -كما يقولون-؛ الإنسان الذى عنده مشاكل وهموم هذا يبقى قلبه مُشَوَّشًا، لا يُحَصِّلُ كثيرًا من العلم، لأن قلبه يَتَفَرَّقُ عَلَيْهِ، فلا يَجتمع ولا يَلتئم، فإذا حصل مع ذلك طول العمر فإن هذا الإنسان سَيُحَصِّلُ ما لا يحصّله غيره.

انظر إلى الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- تُوفي وهو صغير وهو عالم، ومن شيوخه الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله-، لكن انظر كم عُمِّرَ هذا وكم عُمِّرَ هذا؟ فهذه القضية لها تأثيرٌ في التحصيل كما لا يخفى.

٤- المعلّم الذي يُحسن التَّعليم

كما أنَّ العلماء يذكرون أيضًا وهو أمرٌ لابُدَّ مِنْهُ: **الظَّفَرُ بالمعلم الذي يُحْسِنُ التعليم**، وسيأتي الكلام على هذه المأساة!

وقد جَمَعَ الشافعي -رحمه الله- جُملة من هذه الشروط بالأبيات المعروفة:

أَخِي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إلَّا بِسِتَّةٍ * * * سَأُنْبِيْكَ عَنْ تَفْصِيْلِهَا بِبَيَانِ

ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ * * * وَصُحْبَةِ أُسْتَاذٍ وَطُوْلُ زَمَانِ

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من القدرة التي تُطْلَبُ من أجل التَّحصيل العلمي: "استعداد العقل وَسَابِقَة الطلب ومعرفة الطُّرُقِ الموصِلة إليه من الكتب المُصَنَّفَةِ، علماء مُتَقَدِّمونَ، وسائِر الأدلة المتعددة، والتَّفَرُّغ له عما يُشغَل به غيره"، وهذه كلها من جملة القُدْرَةِ.

والمقصود -أيها الأحبة- أنَّ هذه الأمور حينما تُذكر فالمقصود بذلك أنها **شروط للنبوغِ**، ولكن قد يُحَصِّلُ الإنسان مع تَخَلُّفِ بعض هذه الشروط، لكن الأمرُ كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: "الطَّبْعُ أرضٌ والعِلمُ بِذْرَةٌ، ولا يكون العلم إلا بالطَّلَبِ، فإذا كان الطبع قابلًا زَكَا رَيعُ العلم، وَتَفَرَّعَتْ معانيه"، فكلامُهم إنَّما هو في التَمَيُّزِ والتَّمَهُّرِ والنبوغ والرُّسُوخِ، ولهذا يقول الشَّعْبِي -رحمه الله-: "أنَّ هذا العلم لا يَصلح إلا لمن فيه عقل وَنُسُك".

وكان الفَرَّاءُ يقول: "لا أرحم أحدًا كرحمتي لرجلين: رجل يطلب العلم ولا فهم له، ورجل يفهم ولا يطلبه، وإنِّي لأعجب ممن في وِسعه أن يَطلب العلم ولا يتعلم!".

ولم أرَ في عيوب النَّاس عيبًا * * * كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ على التَّمَامِ

فإذا وُجِدَتِ الأهلية عند الإنسان، يحتاج مع ذلك إلى الرَّغْبةِ، وهذه الرغبة قد تكون غير موجودة، ولكن ممكن أن تُوجد بإلزام النَّفْسِ بحضور مجالسِ العلم، وهذا شيء مُشاهَد ومُجرَّب. توجد بإلزام النفس بالقراءة والاطلاع والنظر والبحث، حتى يكون ذلك سَجِيَّةً وَعَادَةً رَاسِخَةً لَهُ، فإذا خرج من مَكتبته فكالسمكة حين تخرج من الماء، لا يَجِدُ لَذَّتَهُ ولا أُنسهُ ولا راحتهُ ولا نعيمهُ إلَّا بين الكتبِ وفي مجالسِ العلمِ.

هذه الرغبة يُمكن أَن تُوجَد بالنَّظر في سِيَرِ العلماء، في مخالطتهم. يُمكن أن توجد بالقراءة في فضائل العلم وما أَعَدَّ الله عزَّ وجلَّ لأهله؛ فَعُشَّاقُ العِلْمِ أيُّها الأحبة كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "أعظم شَغَفًا بِهِ وَعُشْقًا لَهُ مِنْ كُلِّ عَاشِقٍ بِمَعْشُوْقِهِ، وكثيرٌ منهم لا يَشغلهم عنه أجمل صورةٍ مِنَ البشر"، وكان يقول: "لَوْ صُوِّرَ العلم صورة لكانت أجمل من صورة الشمس والقمر"، وصدق رحمه الله!

وانظروا أَيُّها الأحبة وقارنوا بحالنا، فهذا رجلٌ من أهل العلم كان يقول: "إِذَا غَشِيَنِيْ النُّعَاسُ في غير وقت نوم -وبئس الشيء النَّوم الفَاضِلُ عَنِ الحَاجَةِ-، يقول: فاذا اعتراني ذلك تَناولتُ كتابًا من كُتُبِ الحِكَمِ، فأجد اهتزازي للفوائد والأَرْيَحِيَّةِ التي تَعْتَرِيْني عند الظَّفَرِ بِبَعْضِ الحاجة، والذي يَغْشَى قَلبي من سرورِ الاسْتِبَانَةِ وَعِزِّ التَبَيُّنِ، أَشَدَّ إِيقاظًا مِن نَهِيْقِ الحَمِيْرِ، وَهَدَّةِ الهَدْمِ"، نحن إن أردنا أن ننام أصابنا الأرق، لربما نَعْمَدُ إلى كتاب من أجل أن ننام!، إذا أخذ الإنسان الكتاب بدأ يتثاءب!، وإذا حَضَرَ في مجلس العِلم غَلَبَهُ النَّومُ وألقى عليه سِرْبَالَهُ، فهذا يَجِدُ هذا الاهتزاز والنَّشاط إذا نظر في كتاب من كُتُبِ الأدب!

٥- الصبر والمصابرة

وأمَّا الحديثُ عن **الصَّبرِ** فقد تحدَّثتُ كثيرًا عن الصَّبر -أيها الأحبة- في الأعمال القلبية، فالصَّبْرُ عُدَّةٌ، وهو السَّبيل والطَّريق إلى تحصيلِ المطلوبات الدُّنْيَوِيَّةِ والأخروية.

وهو السَّبيل إلى تجاوز المصاعب والشَّدائد والآلام والأنكاد في هذه الحياة الدُنيا.

الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ من رَكِبَها أفلح وَظَفِر.

هذا ابن طاهر المَقْدِسِي يقول: "بُلْتُ الدَّمَ في طلب الحديث مرَّتين: مرَّة ببغداد، ومرَّةً بمكة، كنت أمشي حافيًا في الحَرِّ فَلَحِقَنِي ذلك، وما ركبت دابَّة قَطُّ في طلب الحديث، وكنت أحمل كتبي على ظهري، وما سألت في حال الطلب أحدًا، كنت أعيشُ على ما يأتي".

وهذا التِبْرِيْزِي ابن الخطيب حصلت له نسخة من كتاب [تهذيب اللغة للأزهري] -وهو كتاب كبير في مُجلدات-، فأراد أن يأخذها عَنْ عالِمٍ باللغة، فَدُلَّ على أبي العلاءِ المِعَرِّي، فجعلها في مِخْلَاةٍ وَحَمَلَهَا على كَتِفِهِ من تِبْرِيز إلى المَعَرَّة، ولم يكن له ما يَستأجر به مركوبًا، فَنَفَذَ العَرَقُ مِنْ ظهره إليها.

وقد قيل إنها ببعض الأوقاف في بغداد في خزائن الكتب، وأن الجاهل بخبرها إذا رآها يظن أنها غريقة، وليس الذي بها إلا عرق يحيى بن علي التبريزي -رحمه الله-.

وهذا سُقْرَاط الفيلسوف الضَّال حَصَّلَ من العلوم الفلسفية ما حصل وَاشْتُهِرَ بهذا، لما سأله بعض المعجبين به: أنَّى لك هذا العلم؟ قال: "لأنني أنفقتُ من الزَّيت أكثر مما شربت من الماء"؛ يعني الزيت الذي يُوْقِدُ به السِّراج ليقرأ في الليل.

٦- ملازمة أهل العلم

كما أن الإنسان أيضًا بحاجة إلى **مُلازَمَةً لأهلِ العِلمِ**؛ العلماء أيها الأحبة إلى القرن الماضي كانوا يلازمون حَلَقَةَ العالِمِ، وهذا العالم هو الذي يُوَجِّهُهُمْ وَيَتَشَاوَرُ مَعَهُمْ أو يختار لهم الكتاب

الذي يُدرَس، ويَبْقَون على هذه الحال المدة الطويلة تصل إلى ثلاثين سنة أو أكثر، حتى يَتَخَرَّجُونَ على يَدِهِ عُلَمَاء.

اقرؤوا في ترجمة الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- مثلًا، كَمْ تَخَرَّجَ مِنْ حَلَقَتِهِ مِنَ العُلَمَاءِ؟ والقضاة؟ أعداد كبيرة جدًا، حلقة عالم واحد!، واقرأوا في تراجم العلماء قبله.

ثم بعد ذلك تَغَيَّرَتِ الحال، واشتغل الناس بالأعمال، والوظائف، والتجارات، وكان بَوَادِرُ ذلك تجدونه في ما كتبه الشيخ عبد الرحمن بن سَعْدِي -رحمه الله- في رسائله التي كتبها للشيخ عبد الله بن عَقِيل -رحم الله الجميع الأحياء والأموات-، كان يَذْكُرُ لَهُ بأنَّ الطُّلَّابَ بَدَأوا يَتَفَلَّتُونَ ويتناقصون بحثًا عن الوظائف والأعمال، وهذا الأمر الذي كان الشيخ -رحمه الله- يذكره صار بعد ذلك شيئًا ظاهرًا، ونشأ عليه الصغير وشاب عليه الكبير..!

فأصبحنا -للأسف- في واقع لربما لا يُعيننا على التحصيل العلمي المتميِّز، وصار طالب العلم يتذوَّق وهو أمير نفسه، هو الذي يضع الخطة، ثم بعد ذلك يبدأ يَحْضُرُ، وهو الذي يُقَرِّر أنَّ هذا الشيخ أهلٌ أن يتلَّقى على يديه وأن يُثني الرُّكب عنده، وأنّ هذا الدرس مؤصَّل أو غير مؤصَّل!

شاب ليس في وجهه شعرة ويتحدَّث عن درس عالم من العلماء! يقول: "هذا الدرس ما فيه تأصيل"!؛ هو سمع كلمة "تأصيل"، فأراد أن يُطَبِّقَ عمليًا، فبدأ يحضر الدروس ويَظُنَ أنه إذا قيل: درس فيه تأصيل أنَّه يقول: الأصل الأول في التأصيل كذا والأصل الثاني، يظن يبدو أن الدروس بهذه الطريقة، فما في تأصيل!

ما هو التأصيل؟

التأصيل: أن يذكر مأخذ المسألة والدليل من الكتاب أو من السنة.

فالشاهد أنَّ الكثيرين أصبحوا يَتَذَوَّقُونَ؛ فيحضر عند هذا قليلًا، ثم بعد ذلك يبدو له أن هذا الدرس لا يصلح له، إما لأنه أقل من مستواه أو أنه أعلى من مستواه -إن تواضع-، أو لأن هذا الشيخ لا يعتني بالدرس ولا يُحَضِّر -كما يقول-، أو لأن هذا الشيخ يَتَخَلَّف ويغيب أو غير ذلك من الأمور، فيحضر هنا قليلًا ويحضر هنا قليلًا ويحضر هنا قليلًا، ثم تُشاهد هذا بعد عشر سنين ثم بعد عشرين سنة وإذا هو كما رأيته أول مرة، وإذا سمعت أَسْئِلَتَهُ فهي أسئلة العوام! يسأل عن مسألة أيام الحج أو عن قضية تتعلق بمعاملة من المعاملات أو نحو هذا، أسئلة عوام! وأين هذا التحصيل سنوات؟!

يتذوق، فقرأ من هذا الكتاب ربع الكتاب، ومن هذا الكتاب ربع الكتاب، ومن هذا الباب الأول، ومن هذا حفظ ثُلُثَ الكتاب، أرباع، وإن عرضت عليه أسماء بعض الأبواب من بعد المنتصف لربما لم يَسمع بها.

فأقول: من أراد العلم ينبغي أن يصبر على ثني الركب في مجالس العلم، نعم فيها مشقة لكن ثقوا ثقةً تامةً أن من اعتاد ذلك فإنه يجد من اللذة ما لا يجده أَقْرَانُهُ وأصحابه الذين قضوا أوقاتهم في النُّزَهِ والمُتع والملاهي والذهاب هنا وهناك، جنَّة! روضة من رياض الجنة! وهذا الكلام من لم يُجَرِّبْهُ ولم يَعرفه يستغرب، يقول: تتحدث عن ماذا؟ أين الجنة؟ الله يعطي من شاء ما شاء، والمحروم محروم!

فهذا نُعَيم المُجْمِر -رحمه الله- جَالَسَ أبا هريرة -رضي الله تعالى عنه- عشرين سنة متوالية، وهذا عبد الله بن نافع جالس الإمام مالك -رحمه الله- خمسًا وثلاثين سنة، واليوم طالب العلم يحضُر درسًا أو درسين أو ثلاثة أو صيفية عند عالم، وقال شيخنا وقال شيخنا!

وأحيانًا لم يحضر له درسًا واحدًا، إنَّما أسئلة ومَجالس فيها أسئلة، وقال شيخنا وقال شيخنا!

يملأ المجالس بهذه العبارات، وماذا حضر؟! هذا خمس وثلاثين سنة!

فينبغي على الإنسان أن لا تَتَقَاصَرَ هِمَّته في هذا الباب، ويكتفي بحضور بعض الدروس القليلة، ثم بعد ذلك ينقطع، وكثير من الناس لا يعرف العلم، فإذا درس دراسةً أَوَّلِيَّة يَظُنُّ أن هذه الأبواب -التي يسمع بها بعد ذلك- أنها هي الأبواب التي درسها، وأنَّ هذا يُعادُ عليه ثانيةً. العلم على مراحل، ولهذا تجد بعض من لا يعرف العلم حينما يأتي ويحضر درسًا في كتاب أو نحو هذا، ويسمع كتاب الطهارة أو نحو ذلك، يقول: درسناه في الابتدائية!

• ثالثًا: ما هي الطريقة الصحيحة في التَّعلُّمِ والتعليم؟

وهذا أمرٌ في غاية الأهميَّة، وكان ابن خَلْدُوْنَ -رحمه الله- في مُقدمته يَعيب على أولئك الذين لا يُحسنون التعليم، فيبدأون مع المتعلم بالمسائل الصعبة أو الدَّقِيْقَة، ويطرحون عليه من غايات الفنون ما لم يتهيأ لفهمه، فيستصعب ذلك ويظن أنَّ العلم بعيد المنال.

ذكر ابن بَدران -رحمه الله- في كتاب [المدخل]: أن السبب في بقاء الكثيرين السنوات الطويلة من غير تحصيل يرجع إما لِضَعف قدراتهم وإمكاناتهم، أو لسوء التعليم.

سوء التعليم يبدأ: كتاب الآن في مصطلح الحديث أو في النحو أو في الفقه بدأ الكتاب بالبسملة: "البسملة؛ بدأ المؤلف بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز ولما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (كل أمرٍ ذِي بَال لا يُبدأ فيه..)..."، ويبدأ يتكلَّم على الحديث هل هو صحيح أو غير صحيح؟!

ثم يبدأ يشرح البسملة: الباء هذه هل هي للاستعانة؟ أبدأ مستعينًا بالله، بسم الله، والمُقَدَّرُ هل هو اسم أو فعل؟ بسم الله أبدأ أو بسم الله ابتدائي؟ وأيهما أبلغ؟ تقدير الاسم أو الفعل؟ وهل المقدَّر مقدّم أو مؤخّر؟ أبدأ بسم الله أو ابتدائي بسم الله أو بسم الله ابتدائي؟ حتى لا يتقدَّم شيء على اسم الله؟ وهل المقدَّر هنا، خاص أو عام؟ بسم الله آكل، بسم الله أقرأ، أو بسم الله أبدأ مطلقًا ليصلح لكل شيء.

الآن الكلام كلّه في الباء!، وما جئنا للاسم وهل هو مُشْتَقٌّ من السُمُوِّ أو من السِّمَة يعني العلامة، وشواهد ذلك من العربية. ثم بعد ذلك (بسم الله)، لماذا حُذفت الألف في البسملة في

الكتابة؟ و(الله) لفظ الجلالة هذا هل هو مُشْتَقٌّ أو جامد؟ وإن كان مشتقًا من أين مادّة الاشتقاق؟

وكلام طويل إلى الآن في شرح البسملة، ما جئنا بعد لكلام المؤلف في المقدمة: "الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله فهذا مختصر وضعته في الفقه"؛ (هذا) الإشارة هنا إلى موجود أو مقدَّر في الذّهن؟ لأنّه إذا كتب المقدمة في البداية فكيف يشير بهذا وهو غير موجود إلى الآن المختصر؟ فيقول لك: يحتمل أن يكون كتب المقدمة بعد أن كتب الكتاب فتكون الإشارة إلى موجود، ويحتمل أن يكون الإشارة إلى مقدَّر في الذهن وأنّ هذا صحيح كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

فهذا (كتابٌ): والكتاب على وَزْنِ فِعَال وهو من الكَتْبِ، وأصل هذه المادَّة ترجع إلى الضَمِّ والجمع... ويأتي بكلام طويل، إلى الآن في المقدمة!

فلما يسمع طالب العلم هذا الكلام يقول: هذا العلم صعب، إلى الآن في مُقدمة المؤلف، فمتى نصل إلى الأبواب الأخيرة في الكتاب؟! هذا بعيد المنال لا يصل إليه إلَّا الواحد بعد الواحد، فَيَنْقَطِع ويترك العلم بسبب سوء الطَّريقة في التعليم.

اجتمعنا على الفقه لماذا نشرح المقدمة؟ لماذا نشرح البَسْمَلَةِ؟ بدرس التفسير نشرح البسملة، وللأسف اعتدنا طريقةً معينةً أحيانًا يَصْعُبُ علينا مُفارقتها، نحن في الدورات المنهجية نذكر لمن يأتي، نقول: لا تشرح المقدمة، لا تشرح البسملة، لا تشرح الحمدلة، ابدأ بالمقصود مباشرةً، وبعض المشايخ أقول له هذا الكلام عند الباب، ويقول: إن شاء الله، ثم إذا جَلَسَ: "بسم الله

الرحمن الرحيم ابتدأ بالبسملة.."، ويبدأ يُعيد نفس الطريقة!؛ العادة غَلَّابَة، الإنسان إذا اعتاد على شيءٍ يَصْعُبُ عليه مُفارقته.

بل إن ابن خلدون -رحمه الله- عَدَّ كَثْرَةَ التَآلِيفِ، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وكثرة الحواشي، والمُختصرات، والمُطولات، أن ذلك من جُملة الاسباب المُعَوِّقَةِ عن العلم.

هذا صحيح، لو أراد الانسان أن يقضي العمر في فَنٍ واحد؛ أصول الفقه، أو مصطلح الحديث، أو النحو، أو نحو هذا، كم يوجد عندهم من المختصرات والكتب المتوسطة والحواشي والمطوّلات؟!

إذا عرفت هذا، أقول: اسمحوا لي أيها الأحبة أن نُجري مقارنة مع واقعنا وحالنا، تحدَّثنا عن العلم أنه بهذه الطريقة من التَّطويل وذِكر الخلاف، فإذا جاء التلميذ عند الشيخ لأول وَهْلَةٍ أعطاه كل ما يستطيع!، يُحَضِّرُ في الفقه مثلًا من شروح الحديث ومن كتب الفقه المطوّلات، ومن غيرها..

شرح كتاب [منهج السالكين] مثلًا، أو شرح [عمدة الفقه]، هذا وُضع للمبتدئين، فَيُحْشَدُ للتلميذ كل شيء من الأقوال، والخِلاف والأدلة والترجيح.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يُبدأ بكتاب [المجموع] أو [المُغني] من البداية؟! ولو قيل لهذا الشيخ نظريًا: نبدأ بكتاب [المغني]، قال: "لا، هذا للمتقدمين، لا يُبدأ بهذا، بل يُبدأ بكتاب مُختصر على قولٍ واحدٍ"، فإذا شرحه حَوَّلَهُ إلى موسوعة!

ولهذا صرنا نسمع أن المختصر الفلاني يُشرح في ٢٠ سنة، وهو مُختصر!، بعضهم يقول أنه شرح ٩٠ حديثًا في ٣ سنوات، على درس يومٍ في الأسبوع، وفي الدرس يَشرح حديثًا، أو جملة، أو سطرًا من الفقه، تُشقُّ فيها الشَّعرة والشعيرة!

هذا المبتدئ في العلم يحتاج إلى جُمَلٍ من العلم مختصرة، لا يحتاج إلى هذا التطويل والتفصيل.

طبعًا هذا أَثَّرَ آثارًا سيئة، صار هؤلاء التلاميذ إذا لم يُؤتَ له بأشياء يسمعها لأول مرة، أصبح الدرس ما فيه شيء!

لو اكتفى الشيخ بهؤلاء الذين يطلبون العلم في أوَّل أمرهم لمبدأ الطلب في بيان جُمَلٍ من العلم مختصرة، لقالوا: هذا الدرس لا شيء فيه.

عدد الأسابيع في العام أيها الأحبة ما يقارب ٥٠ أسبوعًا، أليس كذلك؟ طيب حسبوا معي؛ الاختبارات بالفصلين: ٤ أسابيع، فإذا نَقَّصْنَا ٤ أسابيع وهذه الإجازة ١٥ أسبوعًا، اطرح الإجازة حيثُ أن الدروس تتوقَّف بالإجازة أليس كذلك، وأيام الاختبارات، وإذا حذفت أيضًا شهر رمضان ٤ أسابيع، ثم احذف إجازة العيد أسبوعًا أقل شيء، ثم احذف إجازة نصف العام بين الفصلين مع الحج وهي أسبوعان، واحذف إجازة منتصف الفصل الدراسي الثاني أسبوعًا واحدًا، يبقى لدينا ٢٣ أسبوعًا فقط!

فإذا كان الدرس يومًا في الأسبوع، وكان الدرس الواحد يُشرح فيه حديث تُشقُّ فيه الشعرة والشعيرة، فكم يصير عندنا في السنة في الواقع، كم حديث شُرِح؟! ٢٣ حديثًا، هذه هي النتيجة وهذا هو الواقع!

والذي لربما نحن ندخل في الدرس ونحن نُدَرِّس أو ندرُس دون أن نحسب هذه الحسابات، ونظن أننا سنقطع شَوطًا، وسَنُحَصِّلُ علمًا، ثم بعد ذلك يبقى هذا الإنسان السنة والسنتين والثلاث والأربع ويجد نفسه ما عمل شيئًا!، هذا كتاب واحد مُختصر في المستوى الأول في هذا الفَن، فمتى سيُنهي المستويات الأخرى؟ ومتى سيدرس العلوم الأخرى؟ العمر يَمضي، ثم بعد ذلك يتلاشى، فيتلاشى الآلاف من طلبة العلم الشرعي في الجامعات الشرعية، وممن يحضرون في الدورات العلمية، وفي مجالس العلم.

هذه الدورة التي عندنا، ستة أيام في الأسبوع الأول، وستة أيام في الأسبوع الثاني = بمجموع اثني عشر يومًا، نصف هذه المدة المذكورة تقريبًا تصل إلى اثني عشر أسبوعًا، بمعدل ثلاثة أشهر، فإذا حسبت ١٢ضرب ٥ حيث أن هناك خمسة دروس باليوم، الواقع أنه يكون لديك في الأسبوعين ستون درسًا، أي ما يعادل ستين أسبوعًا، وهذا أكثر من درس بالأسبوع بكثير.

الآن إذا أردنا أن ندرس بنفس الطريقة هذه، كنت قمت بعملية حسابية لدراسة الكتب بشق الشعرة والشعيرة، يوم بالأسبوع مع التوقف في الإجازات والاختبارات، وَيُشْرَحُ حديثٌ واحدٌ في الدرس، [البخاري] من غير المكرَّرات تصل أحاديثه إلى ما يقرب (٢٦٠٠) حديث، وبالمعلقات إلى (٢٧٦١)، والمكررات إلى (٧٢٧٥)، هل تعلمون كم يحتاج لو شرحنا حديثًا واحدًا في يوم في أسبوع بنفس الطريقة؟ ٢٣ أسبوعًا في السنة أي ٢٣ حديثًا؟ نحتاج إلى أكثر من ١٠٦ سنوات حتى نشرح [صحيح البخاري]!، وإذا شرحنا حديثين نحتاج إلى ٥٣ سنة، ولو كان الدرس كل يوم، وفي كل يوم نشرح حديثًا واحدًا فنحتاج إلى ٧ سنوات.

[صحيح مسلم] تصل أحاديثه إلى أربعة آلاف من غير المُكرر، وبالتكرار أوصله بعضهم إلى اثني عشر ألفًا، وهذا يحتاج إلى ١٥٣ سنة.

[أبو داود] تصل أحاديثه إلى (٥٢٥٢) وهذا يحتاج إلى ما يقرب من مائتي سنة بنفس الطريقة السابقة؛ يوم في الأسبوع وحديث واحد تُشقّ فيه الشعرة والشعيرة.

[الترمذي] تقرب أحاديثه من (٤٠٠٠) يحتاج إلى ١٥٢ سنة.

[النسائي] تصل أحاديثه إلى (٥٧٦١) حديثًا يحتاج إلى ٢٢١ سنة.

[ابن ماجه] تصل أحاديثه إلى (٤٣٤١) حديثًا تحتاج إلى ١٢٦ سنة.

[منتقى الأخبار] فيه أكثر من (٥٠٠٠) حديث يحتاج إلى ١٩٣ سنة.

[بلوغ المرام] فيه (١٤٨٢) حديث في بعض التعداد، يحتاج إلى ٥٧ سنة على نفس الطريقة السابقة.

[منهج السالكين] هذا الكتاب الصغير في الفقه، في بعض طبعاته المحقّق قسمه إلى فقرات بلغت (٦٧٩) فقرة، بعض الناس يدرس فقرة واحدة يشقّقها ويأتي بالكلام الذي في المطولات والأدلة والخلاف والردود والمناقشات، فهل تعلمون كم يحتاج من الوقت على هذه الطريقة؟ يحتاج إلى ٢٦ سنة.

حَدَّثَنِي بعضُ الإخوان أنهم بدأوا يقرأون في [تفسير ابن كثير] في بعض الدروس من سنة ١٤٠٥ إلى ١٤٢٧ وصلوا إلى مُنتصف سورة النساء تقريبًا، من الفاتحة!

فمتى يُنهى [ابن كثير] ومتى ينهى [ابن جَرِير] إذًا؟ ومتى تُنهى الكتب المطولات؟

الله أعلم، يحتاج إلى قرون، يحتاج الإنسان عمر نوح حتى يُنهي المختصرات فضلًا عن المطولات!

هذه ليست الطريقة الصحيحة للتَّعلُّم، وما أَقْعَدَ الناس عن العلم وما قَطَعهُم إلا هذا.

▪ قراءة الضبط عند العلماء

وانظروا إلى طريقة العلماء في قراءاتهم؛ **قراءة الضبط مثلًا:**

[صحيح مسلم] قرأه جَمَالُ الدِّيْنِ القَاسِمِيُّ في ٤٠ يومًا، وَقُرِئَ على ابن لُبَّاج في جامع قُرْطُبَة في أسبوع يقرأه مرتين في اليوم، وَقَرَأَهُ طَلْحَة العَلْفِي الحَنْبَلِيُّ في ثلاثة مجالس، وقرأه الفَيرُوزَبادِي على ناصر الدين محمد بن جَهْبَلْ كذلك، وقرأه الحافظ ابن الأَبَّار على عبد الله الحَجْرِي في ستة أيام، وفي هذه المدة أيضًا قرأه العِراقي على محمد بن إسماعيل الخَبَّاز في دِمَشْقَ، وقرأه الفيروزبادي على البَيَاني في المسجد الأقصى في أربعة عشر مجلسًا، وقرأه الحافظ ابن حجر على محمد بن محمد بن عبد اللطيف في خمسة مجالس، وكذا قرأه البِقَاعِي على البَدْرِ الغَزِّي.

[سنن ابن ماجه] قرأه القاسمي في ٢١ يومًا، وقرأه الحافظ في أربعة مجالس.

[المُوَطَّأ] قرأه القاسمي في ١٩ يومًا.

[تهذيب التهذيب] قرأه القاسمي مع تصحيح السهو وتَحْشِيَتِهِ في عشرة أيام.

[البخاري] قرأه الخطيب البغدادي على إسماعيل الضَّرِيرِ في ثلاثة مجالس -طويلة طبعًا-، وقرأه أيضا على كَرِيمَة المَرْوَزِيَّة في خمسة أيام بمكة، وكذا قرأه القَسْطَلَّانِي على النَّشَاوِي، وقرأه الحافظ في عشرة مجالس كل مجلس أربع ساعات، وقرأه عثمان الدِّيَمِي في أربعة أيام في الروضة الشريفة، وقرأه البِقاعي على البَدر الغَزِّي في ستة أيام، وقرأه محمد عبد الحي الكتاني تدريسًا وقراءة تحقيق وتدقيق في نحو خمسين مجلسًا، لم يَدَع شاذَّة ولا فاذَّة تتعلق بأبوابه ومحل الشاهد منها إلا أتى عليها مع غير ذلك من اللطائف المُستجادة.

[المحدِّث الفاصل] للرَامَهُرْمُزِي قُرِئ على ابن الطُّيُورِي في مجلس.

[السيرة لابن هشام] قرأها الذَّهبي على أبي المَعالي في ستة أيام.

[المُسند] قرأه العِراقي على ابن الخَبَّازِ في ثلاثين مجلسًا، وقرأه الحافظ على شيخه عبد الله بن عمر الهِندي في ثلاثة وخمسين مجلسًا في زياداته.

[السُّنَنُ الكُبرى للنَّسائي] قرأه الحافظ على الشَّرَفِ ابن الكويك في عشرة مجالس.

[المعجم الصغير] للطَّبراني قرأه الحافظ على عمر بن محمد البَالِسِي في مجلس، والكتاب يشتمل على نحو ألفٍ وخمسمائة حديث.

إنجازاتهم في المدة اليسيرة ماذا ينجزون!، أقام الحافظ ابن حجر في دمشق مائة يوم، فسمع فيها نحو ألف جُزُءِ حديثيّ، الجزء يعادل عشرين ورقة، لو جُلِّدَت لكانت تُقارب مائة مجلد، وكتب في هذه المدة عشرة مجلدات. الإنسان إذا جاء يكتب رسالة جامعية ماجستير يحتاج إلى أربع سنوات، ثم يطلب سنة خامسة تمديدًا!، ثم لا يكلم أحدًا وربما لا يستطيع أن يلقي كلمة في

المسجد، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا لأن هذه الرسالة قد سيطرت على قلبه وسمعه وبصره وجوارحه، رسالة ماجستير تتكون من ثلاثمائة صفحة أخذت منه هذه السنوات الطوال.

تكرار قراءة الكتاب ودراسته

يقول بعضهم: "قراءة كتاب واحد ثلاث مرات أنفع من قراءة ثلاثة كتب في الموضوع نفسه"، درس عباس بن الوليد الفارسي كتابًا ألف مرة.

ابن التَّبَّان درس كتابًا ألف مرة وهو [المدوَّنة] للإمام مالك -رحمه الله-.

الرَّبيع بن سُليمان صاحب الشافعي يقول: "أنا أنظر في كتاب [الرسالة] منذ خمسين سنة، ما أعلم أني نظرت فيه مرَّة إلا وأنا استفيد شيئًا لم أكن عرفته".

ابن عطية المُحَارِبِي قرأ [البخاري] سبعمئة مرة، وسليمان بن ابراهيم العَلَوِي اليَمني قرأ [البخاري] مائة وخمسين مرة، وقرأه الشَّرْجِي مائتان وثمانون مرة، وقرأه أحمد بن عثمان الكُلُتَانِي أكثر من أربعين مرة، وقرأه أبو بكر القاهري الحَنفي أكثر من مائة مرة، وقرأه عثمان بن محمد التَوْزَرِي على أكثر من ثلاثين رجلًا، وقرأه أسعد بن محمد بن محمود الشِيرازي على شمس الدين الكَرماني أكثر من عشرين مرة، وقرأه البُرهان الحَلبي أكثر من ستين مرة سوى قراءته له في أيام الطلب أو قراءة غيره عليه، وقرأه الفيروزبادي أكثر من خمسين مرة.

وقرأ البرهان الحلبي [صحيح مسلم] أكثر من عشرين مرة سوى قراءته له في أيام الطلب أو قراءة غيره عليه.

نحن نقرأ الكتاب مرة وحدة، ونقول: هذا قرأناه قبل عشر سنوات، مرة واحدة تكفي!

يقول الفقيه يحيى العِمْرَانِي أنه لم يُعَلِّق [الزوائد على المُهَذَّب] إلا بعد أن حفظه غيبًا، ثم طالعه بعد ذلك قبل التَّصنيف أربعين مرة أو أكثر، وكان يطالع الجزء من المهذب وقد جزَّأه إلى واحد وأربعين جزءًا في اليوم والليلة أربع عشرة مرة، ينظر في الجزء الواحد أربعة عشرة مرة.

وقرأ الشيخ عبدالعزيز المَيْمَنِي -وهو معاصر- [معجم الأُدباء] سبع أو ثمان مرات.

وقرأ إبراهيم الأنباسي [أوضح المسالك] لابن هشام أكثر من سبعين مرة.

وقرأ أبو بكر الأَبْهَرِي [مختصر ابن عبد الحكم] خمسمائة مرة، والأَسَدِيَّة [خمسة وسبعين مرة]، و[الموطأ] خمسا وأربعين مرة، و[مختصر البرقي] سبعين مرة، و[المبسوط] ثلاثين مرة.

وقرأ علي بن عبد الواحد الجزائري الكتب الستة على مشايخه دِرَايَةً، قرأ [البخاري] سبعة عشرة مرة بالدرس قراءة بحث وتحقيق وتدقيق، وَمَرَّ على [الكشاف] للزَمَخْشَرِي ثلاثين مرة.

وقرأ عبدالله بن محمد بن فَرْحُونَ [تفسير ابن عطية] مرات كثيرة جدًا حتى قال كدت أن أحفظه.

وهكذا أبو القاسم الشاطبي كاد أن يحفظ [صحيح البخاري] من كَثرة التكرار له في كل رمضان.

كثرة تَدريس الكتاب

نحن نُدَرِّسُ الكتاب مرَّة واحدة، والعمر لا يفي أيضًا بالفراغ منه!

(الكَافِيَجِي) عالم يلقب بهذا لكثرة اشتغاله بـ[الكَافِيَة] لابن حَاجِبِ بالنحو.

(الوَجيزي) وهو جمال الدين الأُشموني لقب بذلك لكثرة عنايته بـ[الوَجيز للغزالي].

(المنهاجي) وهو الزركشي نُسِبَ إلى [منهاج الطالبين] للنووي لكثرة تَدْرِيسِهِ له، فكانوا يُدَرِّسُونَ الكتاب مرات كثيرة جدًا.

هذا ابن العَجَمِي الشَّافِعِي شَرَحَ [المُهَذَّبْ] للشِيرازي خمسًا وعشرين مرة.

وهذا عبد الغافر الفارسي أقرأ [صحيح مسلم] أكثر من ستين مرة.

وهذا إسماعيل ابن الفَرَّاء الحَرَّانِي الحنبلي شرح [المُقْنِع] مائة مرة.

وهذا محمد السِنْجَارِي الشافعي أقرأ [الحاوي] ثلاثين مرة.

وهذا عبد القديم النُزَيْلِي دَرَّسَ [العُبَاب] في الفقه الشافعي ثمانمائة مرة.

وهذا صالح بن عبد الله الصَّبَاغ دَرَّسَ [الكَشَّاف] ثمان مرات.

وهذا إبراهيم الحَريري أقرأ [البخاري] أربع مرات بالمدينة وبمكة أكثر من عشرين مرة.

وهذا يحي بن هلال القُرْطُبِي كان يُقْرِئ [المدونة] كل شهرين مرة.

وهذا إدريس بن جابر العيزري درَّس كتاب [التذكرة] أكثر من أربعين مرة.

ومحمد التاودي درَّس [البخاري] أكثر من أربعين مرة، ودرَّس [الألفية] في النحو ثلاثين مرة وربما ختمها في شهر، ودرَّس [مختصر خليل] ثلاثين مرة، وهكذا كانوا يدرّسون الكتب المختصرة في مدة وجيزة جدًا.

أبو إسحاق الجبنياني يقول: "كنا نجتمع، ولقد ألقينا [المدوَّنة] في شهر، ندرس النهار ونُلقي الليل فما علمت أنا نمنا ذلك الشهر".

وهذا التبريزي درَّس [الحاوي] للماوردي في نصف شهر، ودرَّسه في شهر واحد كرَّر ذلك تسع مرات، ويوجد أحد المشايخ المعاصرين كل سنة يبدأ [ألفية ابن مالك] أول العام وينتهي منها آخر العام، كل سنة!

والبلقيني درَّس [الحاوي] في ثمانية أيام، ومحمد بن أحمد الجزائري -وهو متأخر- درَّس [مختصر خليل] في أربعين يوما، و[الخلاصة] في عشرة أيام.

أقول: عرفتم لماذا صاروا علماء!، نحن ماذا درسنا مرة واحده فقط؟ ما هي الكتب التي أتممنا دراستها؟ ولذلك نبقي بهذا المستوي الضعيف الضحل، مع فشوّ القلم!؛ مع كثرة المدارس وانتشار التعليم والجامعات، لكن هؤلاء قد تفرَّغوا للعلم فصار العلم هو دَيْدَنهم، فلما اشتغلوا به هذا الاشتغال تمهَّروا به وتميّزوا وصاروا علماء.

ولهذا أقول للإخوان الذين يدرّسون: حينما تدرّس مقررًا واحدًا في التوحيد مثلًا أو في الفقه أو نحو ذلك في المرحلة الثانوية أو المتوسطة أو غير ذلك، تدرّس هذا الكتاب أو هذا المقرّر عشر مرات، هل تحتاج إلى تحضيره بعد ذلك؟ تكون قد حفظته ورسخ، أليس كذلك؟

فالعلم مع التَّكرار يثبُت كثبوت ذلك المقرَّر الذي درَّسته هذه المرَّات. لكن الواقع أننا نحضر الدرس -إن حضرنا!- ثم يكون آخر العهد، ونريد أن نضبط وأن نحفظ بهذه الطريقة، بهذا الحضور، فقط مجلس السماع!

فهذا لا يمكن؛ العلم يحتاج إلى بذل الجهد ومواصلة الليل مع النهار، هذا في التميُّز بالعلم لكن ليس هذا لكل أحد، مِن الناس مَن يحضر ليُدرك جُملًا من العلم فهذا يحصّل أشياء. مِن الناس مَن يحضر ليُؤجر في رياض الجنة، تحفُّه الملائكة، فهذا على خير عظيم، في عبادة. لكن نحن نتكلم عن **الرسوخ وضبط العلم والتَّمهُّر فيه**، فهذا الذي أتحدث عنه، وأسال الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين..

▪ التَّدرُّج

أضيف إلى هذا الجانب وهو بما يتصل بالطريقة الصحيحة في التعلم والتعليم، بالإضافة إلى ما ذكرته هناك، أقول: **لا بد من التَّدرُّج**؛ فالعلم درجات، فلا بد من سَيْر صحيح ومنهج متَّبع يُرشد إليه من عرف العلم وحصله وحَذَقه وخَبِره، يقول ابن شهاب -رحمه الله- يوصي يونس ابن يزيد: "يا يونس لا تُكابر العلم؛ فإن العلم أَوْدية؛ فأيها أخدت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة فإن من رَامَ أَخْذَه جُملةً ذَهَب عنه جملة، ولكنَّ الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي".

وهذا معنى قرَّره أهل العلم، وعباراتهم في ذلك كثيرة، كقول حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر -رحمه الله-: "طلب العلم درجات ومناقل ورُتب لا ينبغي تعدّيها، ومن تعدَّاها جُملة فقد تعدَّى سبيل السَّلف -رحمهم الله-، ومن تعدَّى سبيلهم عامدًا ضلّ، ومن تعدَّاه مُجتهدًا زلّ".

وهكذا الماوردي -رحمه الله- يقول: "بأن للعلم أوائل تؤدي إلى آخرها، ومداخل تُفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليُفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يُدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة؛ لأن البناء على غير أُسّ لا يُبنى، والثمر من غير غَرْس لا يُجنى".

وهكذا أيضًا تجد لابن خلدون -رحمه الله- كلامًا طويلًا مفصَّلًا في هذه القضية، وخُلاصة ما ذكر: أنه يرى أن العلم لا بدّ أن يجري وأن يسير في ثلاث مراحل:

الأولى: دراسة المسائل الأساسية من كل باب، وتُشرح على سبيل الإجمال، مع مراعاة استعداد المتعلم.

يقول: هنا تحصل مَلَكة جزئية تُهيّئه لفهم وتحصيل مسائل الفن؛ لهذا تجد العلماء -رحمهم الله- كتبوا للمبتدئين كتبًا فيها جُملٌ من مسائل الأبواب، وهي المسائل الأساسية دون التَّوسع والدخول في التفصيلات، ولهذا فإن من الجناية على الطلاب وعلى العلم أن يُتَوسَّع في هذه الجُمَل حتى يتحول ذلك إلى شيء من المطولات. فهذا خطأ.

انظر إلى كتاب [الورقات] مثلًا؛ من الخطأ أن نأتي بشرح [مختصر الروضة] للطُّوفي أو ما في شرح [مختصر التحرير] أو ما في كتاب [البحر المحيط] للزركشي، فهذه الكتب الثلاثة من أوسع الكتب المصنفة في أصول الفقه، ثم يؤتى به في [شرح الورقات]!

والمرحلة الثانية التي يقترحها ابن خلدون –رحمه الله–:

هي أن يدرس هذا العلم مرة ثانية مع الخروج عن الإجمال في الشرح إلى شيء من الاستيفاء، مع ذِكر الخلاف ووجهه فتَجُود مَلَكته.

يعني العلماء –رحمهم الله– يقولون: في المرحلة الأولى يدرس العلم على قول واحد، إذا كان يدرس الفقه مثلًا: يدرس ذلك على قول واحد، يُبَيَّن له فيه الرَّاجح ومَأْخَذ المسألة مع الدليل، تُفَك له العبارة ويُوضَّح له المُبهم ويُرفعُ عنه الإشكال، فقط.

طبعًا بعض الطلبة المتحمّسين لربما لا يُعجبه هذا، فهو يريد التوسع لأنه اعتاد عليه فيما يرى في كثير من الدروس، ومثل هذا لا يوجد!، ومن غير الصواب –أيها الأحبة– أن تكون الدروس بحسب رغبة الطالبين؛ في توسُّعها وتفاصيلها وما يُذكر فيها، وإنما المعلم مثل الطَّبيب؛ يعرف حاجتهم وما ينفعهم وما يصلح لأمثالهم، ويكون حكيمًا في تعليمه.

الله عزّ وجل يقول: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾؛ والرَّباني كما قال ابن عباس –رضي الله عنه–: "هو الذي يعلم الناس بصغار العلم قبل كباره".

والمرحلة الثانية: هي التي يُشار فيها إلى الخلاف القوي، يُذكر له فيها القول الآخر دون توسُّع، ثم يُبيَّن له الراجح، وبهذا يكون له نوع دُرْبة وبداية في المعرفة في الخلاف.

ثم بعد ذلك في المرحلة الثالثة كما يقول ابن خلدون –رحمه الله–: لا يترك عَوِيصًا ولا مُبهمًا ولا مُنغلقًا إلا كَشَفه.

وهذا أيضًا ليس على إطلاقه: هو بحسب حال الطلاب؛ أحيانًا يكون هؤلاء الطلاب في المرحلة الثالثة قد حصّلوا كثيرًا من العلم، ولا يحتاجون إلا إلى مسائل وقضايا معينة، أو الوقوف عند بعض القضايا التي تحتاج إلى شيءٍ من المناقشة، وإلا فالباقي هو بالنسبة إليهم يُعدُّ من تحصيل الحاصل، فلماذا يعاد لهم الشرح من جديد؟!

فهذه الطريقة ينبغي أن تُراعى، وهذا التَّدرُّج آفته العَجَلة؛ وهذه العجلة تُسبب لصاحبها الخسارة والبَخْس، فلا يرجع بكبير طائل في العلم، لا ينتفع ولا يكون له براعة فيه، ولكن الناس قد يقعون في هذه العجلة، فيتقدَّم على المرحلة التي يجب أن يكون مبتدئًا بها لسبب أو لآخر.

منهم من يبتدئ العلم وهو كبير؛ فيستحي أن يجلس مع من يدرسون من الصغار من المبتدئين، فيريد أن يلتحق بأقرانه ونُظرائه في السّن، ولهذا تجد الرجل أحيانًا لم يطلب العلم قطّ، ثم بعد ذلك توجد عنده الرغبة بعدما تخرَّج من الجامعة وصار يُعَلِّم وصار الناس ينتظرون منه الإفادة، والواقع أنه بحاجة إلى دراسة ورجوعٍ إلى البداية، فيستنكِر ويأبى ويخجل أن يدرس مع الصغار.

ولهذا تجد بعض المعلّمين لربما يمنعه من التعلُّم أنه لا يريد أن يجلس مع تلامذته في مجلس واحد، وبعضهم يصرّح بهذا، يقول: اجعلوا لنا دروسًا خاصة حتى لا نستوي مع تلامذتنا في مجلس واحد.

وهذا لا شكّ أنه نوع من الخطأ والغرور، ولا يُجاب إلى مثل ذلك، والعلم ليس فيه ما يُستحيى منه، وليس هناك كبير على العلم، والإنسان إنما يكون مقداره بحسب ما عنده من التحصيل، والله عزَّ وجل قد جعل الناس على رُتب ودرجات، وقد قيل: "من رقَّ وجهه رقَّ علمه".

والخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله- يقول: "يَرْتَع الجهل بين الحياء والكِبر في العلم"؛ فهذا قد جمع بين كِبرٍ وحياء، وأحيانًا لربما ينتقل الإنسان ويقفز لأنه يُعجب بشيخ يُدرّس للطلاب المتقدّمين فيريد أن يلتحق به. ولربما فعل ذلك لأن له رُفقاء قد بلغوا تلك المرتبة فأراد أن يرافقهم في العلم. وربما فعل ذلك لأنه يريد أن يختصر مراتب التعلم ودرجات التعليم، ويختصر هذا السُّلم الذي يطول؛ فيقول: بدلًا أن أدرس في المرحلة الأولى ثم في المرحلة الثانية، ثم في المرحلة الثالثة، فأبدا في المرحلة الثالثة مرة واحدة، فهذا مثل الإنسان الذي دخل في المرحلة الابتدائية فيقول: لماذا الابتدائي ثم المتوسط ثم الثانوي؟! اذهبوا بي إلى الثانوية مرة واحدة، فل هذا لو ذهبوا به إلى الثانوية ودرس عندهم النحو والرياضيات والكيمياء والأدب وما أشبه ذلك، هل يتعلم؟ هل يفهم؟ لن يحصّل شيئًا.

فالعلومُ الشرعية هكذا أيضًا حين نتحدث عن مراتبها ودرجاتها ومناقبها، والنُّفوس أحيانا يكون فيها شيء من العلل والأَدْوَاء، وربما يريد الإنسان أن يترأس، وقد قال أحدهم حينما قرأ في بعض ترجمة لأهل العلم: أنه جلس للإفتاء حين بلغ الحادية والعشرين، فقال: أنا مستعد أن

أضاعف الجهد بدلًا من أن أقرأ أربعة ساعات في النحو أقرأ ثمانية عشر ساعة، وأبدأ بألفية ابن مالك، وهو لم يقرأ قبل ذلك شيئًا. هل أستطيع خلال دراسة هذه العلوم في نحو أربع سنوات أن أجلس للإفتاء؟! فهذه نية مختلَّة منذ البداية، فأحيانًا يستعجل الإنسان لقصد فاسد.

وهكذا أيضًا قد يستعجل لأنه مشغول وليس عنده، وقت فهو موظف في شركة لا يرجع إلى بيته إلا بعد غروب الشمس مثلًا، أو لأن عنده من العيال أو التجارة أو الأشغال أو الهموم ما يستبطئ معه المدة، فيقول: نلتحق بالمرحلة النهائية، ثم بعد ذلك يكون ما يكون.

وهذه الأشغال والهموم لا شك أنها من المُعيقات التي تحصل للإنسان، وقد قيل: "الهمُّ قَيْدُ الحواس"، وقالوا: "من بلغ أشُدَّه لاقى من العيش أشُدَّه"، ومن الحكمة: "تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا"، وقد قيل: "الشغل مجْهَدَة والفراغ مَفْسَدَة، وربما شحَّ الزمان بما سَمَح، وضَنَّ بما مَنَح".

وقد سَمِعَ الأحنفُ بن قيس -رحمه الله- رجلًا يقول الحكمة المعروفة وهي: "التَعلُّمُ في الصِغَر كالنَّقش على الحجر"، فقال له: "الكبير أكثر عقلًا ولكنه أشْغَلُ قلبًا"؛ وهذا صحيح لأن الكبير له من الإدراك والفهم والحِذق ما ليس للصغير، ولكن الهموم والأشغال وتَفَرُّق القلب هو الذي يَعُوقُه عن كثيرٍ من العلم.

▪ بماذا نبدأ؟

بعد ذلك أقول: إذا تقرَّر أنه لا بد من التدُّرج، **فبماذا نبدأ؟**

ما يُلاحظ هنا عندما نقرأ كلام العلماء -رَحِمَهُم الله- فيما يُبدأ به أنهم يتكلَّمون عن زمانهم، وفي زمانهم كان التعليم اختياريًا؛ كثير من الناس لا يتعلمون ولا يقرأون وإنما مباشرةً يذهبون إلى فِلاحةٍ أو صناعةٍ أو لربما بقي حبيسًا في بيته. فالذين يذهبون إلى التعليم الذي يمكن أن يُسمى في عصرنا هذا بالتعليم الابتدائي هم أولئك الذين يذهبون إلى الكُتَّاب، والمدارس قليلة ولربما لا تتَّسع للناس لو توجَّه المجتمع بأكمله إليها، في البلد الواحد لربما تُعد ثلاث مدارس إذا كان ذلك البلد من البلاد التي تزدهر بالعلم والعلماء.

فوجود الكتاتيب في ذلك الزمان كان يُلبّي بعض الحاجات في وقتهم عند من يتوجَّه إليها، مع مراعاة ما ذكر من أن كثيرًا من الناس لا يتوجَّهون حتى إلى الكتاتيب.

فالذين يذهبون إلى الكتاتيب يتعلمون القرآن بالدرجة الأولى، ولربما تعلموا القراءة والكتابة، فإن ارتقوا درجةً تعلَّموا مبادئ الحساب وغالبًا لا يتعلمون ذلك، هذا أمر لا بد من مراعاته؛ فالعلماء -رحمهم الله- حينما يقولون: "أول ما يُبدأ به.."، فهم يتحدَّثون عن أُناس جاءوا لم يتعلَّموا شيئًا.

أما نحن الآن فالتعليم عندنا تعليمٌ إلزامي؛ يدرس الإنسان منذ نعومة أظفاره، قبل بلوغه سن السابعة لربما درس سنتين يتعلَّم فيها القراءة والكتابة وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك يتعلم ست سنين؛ يتعلم فيها مبادئ في العلوم، سواء كان ذلك في القرآن أو في العربية أو في العلوم الطبيعية والرياضية، كل ذلك يتعلَّمه من وقت مبكر. ثم تأتي مراحل: المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية، فهذه اثنا عشرة سنة ينبغي أن لا تُلغى من حساباتنا حينما نتحدَّث عن مراحل التعليم، وأول ما يُبدأ به.

فحينما نتحدَّث عن شاب في المرحلة الثانوية مثلًا، أو في ما بعد المرحلة الثانوية أو نحو ذلك، لا ننظر إلى هذا الإنسان على أنه جاء ولم يُحَصِّل شيئًا، جاء من الصحراء، هو درس وتعلم أشياء في العقيدة وفي غيرها.

فالعلماء -رحمهم الله- يقولون: يبدأ بالقرآن، كما يقول النووي، ثم يحفظ في كل فنٍ مختصرًا ويبدا بالأهم، يبدأ بالقرآن.

لكن: من هو الذي يبدأ بالقرآن؟؟

إذا جاءنا شاب صغير، نقول له: احفظ القرآن الآن، التحق بحَلَقة. لكن إذا جاءك شخص متخرّج من الجامعة، وقال: أنا ما أتممت حفظ القرآن وأريد أن أتعلم الفقه والعقيدة ونحو ذلك. نقول له ارجع احفظ القرآن أولًا؟! هذا يصعب مُطالبة الناس به.

وينبغي أيضًا أن نعرف أحوال هؤلاء الناس؛ تغيَّرت أحوال الناس عن السابق، هل هذا الإنسان أصلًا من برنامجه أن يحفظ القرآن كاملًا؟ ثم هذا الإنسان، ماذا يريد من العلم الشرعي؟ هل يريد أن يتخصَّص فيه؟ أو أنه يريد أن يتعلم ما تمسّ إليه حاجته؟

هو يقول لك: انا أحفظ بعض الأجزاء من القرآن، وأصلي فيه، فهل يلزم أن أحفظ القرآن كاملًا؟؟

نقول: نحن إذا وضعنا برنامجًا للناس في العلم منذ الصِغَر نقول لهم ابدأوا بالقرآن، وننصح الناس بهذا ونرشدهم إليه. لكن هل هذا من شرط الطَّلب؟ الجواب: لا!

فالشاهد أن هذا من الذي يُطالب به؟ يُطالب به الصغير ويطالب به من كانت له همَّة في حفظ المتون العلمية، نقول له: الأولى والأحرى بك، قبل أن قبل أن تنشغل بحفظ المتون أن تحفظ القرآن، احفظ القرآن أولًا ثم بعد ذلك احفظ متنًا في كل علم.

وهذا المتن الذي يحفظه ينبغي أن يكون للإنسان أيضًا تصوُّر وبرنامج واضح محدَّد المعالم، وهذا يحتاج إلى مرشد وموجّه؛ مثلًا المتون العلمية كثيرة، منها المختصرة ومنها المتوسِّطة ومنها المتقدّمة، على المراتب الثلاث، في كثير من الأحيان نُجهد هؤلاء التلاميذ أو الطلبة فيحفظ الواحد فيهم متنًا في المرحلة الأولى ومتنًا في المرحلة الثانية ومتنًا في المرحلة الثالثة، لماذا هذا الإجهاد؟!

ثم إن القضية لا تقف عند الحفظ، فالحفظ قد يسهُل ولكن المراجعة؛ ينبغي أن تعرف أنَّ مراجعة القرآن مع مراجعة المتون المحفوظة إذا تكاثرت فإن ذلك قد يحتاج إلى ما لا يقل عن أربع ساعات في اليوم من مراجعة، وبعض الناس إذا قلنا له: تقرأ أربع ساعات في اليوم قراءة لطلب العلم، قال: أنتم تبالغون!

المراجعة فقط قد تحتاج إلى أربع ساعات في اليوم، هل عندك هذا الاستعداد؟ وإذا ما راجعتها نسيتها.

ثم أيضًا ماذا تحفظ؟ هل تحفظ المنظوم لأنه أسهل في الحفظ؟ أو تحفظ المنثور؟ نقول: كل بحسبه، ولكلٍّ مزيَّة؛ المنظوم أسهل حفظًا ومراجعة، ولكنه إذا أخطأه أو نسيه أو تعثَّر فيه لم

يتيسَّر له إيراد المعنى. أما حفظ المنثور فإنه إن نسيه فإنه يبقى الاستظهار؛ يستطيع أن يأتي بأسلوبه وبعبارته بالمعاني ولا يتقيَّد بحروفه، هذه مزيَّة للمنثور.

لكن نحن نقول للناس: كلٌّ بحسبه؛ إذا كنت تميل لحفظ النَّظم فاحفظ النظم، وإذا كنت تميل لحفظ النثر فاحفظ النثر. لكن ينبغي أن تعرف ماذا تحفظ؛ على سبيل المثال في علوم الحديث: هل تريد أن تحفظ من الدرجة الأولى؟ تحفظ [البَيْقُونيَّة] مثلًا، أو تحفظ من الدرجة الثانية؟ تحفظ [نُخبة الفِكَر] أو [نُزهة النَّظر]؟ أو تريد أن تحفظ من المرتبة الثالثة؟ مثل [ألفيَّة السّيوطي] أو [ألفيَّة العراقي] في علوم الحديث.

الحماس الزائد أن يقول الإنسان: "أريد أن أحفظ هذا وهذا وهذا.."، نقول: هذا جرَّبه قبلك مُجرّبون؛ فإما أن يضيع بسبب قلة الوقت وشحّه بما يتصل بالمراجعة، وإما لا يحصل لك المطلوب في بقية العلوم، فحدّد منذ البداية.

ولهذا أقول للإخوان في (الدورة المنهجية لحفظ المتون): "لا تلزموا أحدًا بشيء"؛ قد لا يريد أن يحفظ كل المتون في المرجلة الأولى، يختار لا بأس، يقول: "أنا لا أريد أحفظ [الآجرومية] الآن، أنا أريا أن أدّخر حفظي للألفية، ولا أريد أن أحفظ [مُلحة الإعراب]"، لا بأس ولا إشكال.

يقول: "أنا لا أريد أن أحفظ [الأربعين النووية] ولا [عمدة الأحكام]، أريد أن أحفظ [بلوغ المرام]"، لا إشكال؛ لأنه ينبغي أن نراعي أحوال الناس، ونراعي الأمر المهم وهو: المرجعة.

لكنْ كثيرٌ من الناس يُقدم بحماسة، فيحفظ ولا يفكر بعد ذلك في المراحل الأخرى، ولا يفكر في المراجعة، ثم يذهب عليه الوقت سُدى.

فالشاهد أن النووي -رحمه الله- كغيره من أهل العلم: يرون البداية في القرآن، ثم بعد ذلك يحفظ متنًا مختصرًا في كل فن، ويبدأ بالأهم، النووي -رحمه الله- يرى أن الأهم هو الفقه والنحو، ثم الحديث والأصول، ثم الباقي على ما تيسَّر، ثم يَسْتَشرِحُها، ويختار من الشيوخ -كما سيأتي-.

هذا الذي ذكره من أنه يبدأ بالفقه والنحو؛ إنما هو بحسب نظره، وهذا ذكره جَمْعٌ من أعل العلم لا سيما في الفقه، ولكن المتخصّص في فن من الفنون غالبًا يدور حول فنه، ولهذا تجد المتخصص في الحديث يقول: يبدأ بالحديث، والمتخصص بالتفسير يقول: يبدأ بتفسير القرآن، وهكذا.

على كل حال فالنووي -رحمه الله- يرى أنه يفعل ذلك ويستشرح هذه المتون، ثم يطالع بعد ذلك الكتب الأوسع ويعلّق ما يراه من النفائس والفوائد مما قرأ أو سمع، فإذا كمُلت أهليته اشتغل بعد ذلك في التصنيف.

وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ينبّه إلى أن تعلُّم ما يتصل به وتدعو إليه حاجته مما يتعلق به من الأحكام أَوْلى من الاستزادة في حفظ القرآن؛ يعني عنده ما يُصلّي به، يحفظ جزء (عمَّ) مثلًا لكنه لا يعرف في الأحكام شيئًا، ما يعرف الطهارة والصلاة و..، فشيخ الإسلام يقول: إن تعلُّمه لما يحتاج إليه من هذه العلوم أولى من الاستزادة في حفظ القرآن.

فإذًا: **نُفرِّق في أحوال الناس**؛ فإذا كان عنده ما يكفيه من هذه العلوم فإنه يبدأ بحفظ القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

وهكذا الذهبي أيضًا يرى أن البداية تكون بالفقه، فيحفظ متنًا فيه، ويستشرح هذا، ويطالع الشروح.

وابن جَماعة يرى الاشتغال أولًا بالقرآن حفظًا وتفسيرًا، مع دراسة علوم القرآن، ثم يحفظ من كل فنٍّ مختصرًا من الحديث والنحو والتَّصريف، إلى غير ذلك. وينشغل باستشراحها على أهل العلم.

وعلى كل حال: العلماء -رحمهم الله- حينما يتحدثون عن هذه القضية. كما قلت: كل بحسب ميوله واهتماماته، وبحسب ما برع فيه أو تبيّن وظهر له.

والشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- من المعاصرين، حينما يتكلم عن علم الحديث فهو يرى الاعتناء أولًا بالصحيحين ثم بالسنن وصحيحيّ ابن خزيمة وابن حِبّان، والسنن الكبرى للبيهقي، ثم بالكتب الجامعة المؤلفة في الأحكام: كالموطأ، ثم كتب ابن جُرَيج وابن أبي عروبة وسعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن أبي شيبة، ثم كتب العلل، ثم يشتغل بكتب رجال الحديث وتراجمهم وأحوالهم، ثم يقرأ كثيرًا من كتب التاريخ وغيرها.

يعني أن الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- يرى أن الاشتغال بالجرح والتعديل والعلل وعلم الرجال، يكون في الآخر، وهو رجلٌ متخصص في الحديث.

ونحن نرى بعض الشباب في بدايات الطلب يشتغل بهذه القضايا، وربما كان ذلك كما قال بعض أهل العلم: "علم الحديث له شهوة فتَطْرَب له النفس أحيانًا" ؛ولذلك تجدون بعض

الخلفاء كان يَسْتَهويه ما يراه من مجالس أهل الحديث ومجالس الإملاء والتحديث، ويتمنى لو أنه حصل له شيء من ذلك.

▪ هل يجمع دروسًا أو علومًا مختلفة في وقت واحد؟

المعروف أن المغاربة لهم طريقة في هذا، ولا زال عليها الشناقطة عند بعضهم على الأقل إلى اليوم، وإن كان بعضهم قد غيّر ذلك؛ فهم يرون أن هذه العلوم لا يمكن أن تُجمع في وقت واحد، ويشبّهون ذلك بالمولودين (توأم)؛ لا يمكن أن يخرُجا في وقت واحد، فيولد الأول ثم الثاني. والمشارقة كانوا يجمعون بين العلوم.

وعلى كل حال يمكن أن يقال بأن ذلك يختلف باختلاف الناس؛ بحسب أوقاتهم وبحسب قُدرهم وإمكاناتهم، فمن الناس من لا يتيسَّر له أن يجمع بين علوم مختلفة، فيقف على فن واحد، فإذا انتهى منه فإنه يدرس الفن الآخر. لكن الأمور أحيانًا قد لا تساعده على ذلك؛ هذا طالب ذهب إلى الجامعة، وجاء إلى منطقة فيها دروس كثيرة، فيها عا لم يدرّس علومًا مختلفة، قال: "أنا سأقتصر على فن واحد"، والباقي؟! هذا الفن الواحد لربما عند هذا العا لم لا ينتهي إلا بعد عشر سنين أو أكثر، وبقية العلوم؟! فلماذا تهدر هذه الأوقات؟ باقي الوقت ماذا تفعل به؟

ولذلك نقول لبعض الشباب إذا جاء يسأل أحيانًا: أنا أريد أن أشتغل بالقرآن، قيل لي: لا تشتغل بغير القرآن، نقول: كم تشتغل بالقرآن؟ يقول: في مدة لا تتجاوز الساعتين، طيب: ساعتان من أربع وعشرين ساعة كم بقي؟ اثنتان وعشرون ساعة، أين تذهب؟

"لا تشتغل بغير القرآن"؛ فكثير من الناس أُخذوا بهذه المقولة فذهبت عليهم سنوات وفاتهم علم كثير، لذلك أقول: أحيانًا يوجد لدى الإنسان من يعلّمه بهذه الطريقة؛ يقتصر على فن واحد ويسير به شيئًا فشيئًا، هذا لا إشكال فيه، لكن في الغالب لا يتيسَّر له مثل هذا، فماذا يصنع الإنسان؟ نقول يدرس بحسب طاقته وبحسب ما يُتاح له من الوقت والإمكان.

ولهذا النووي -رحمه الله- كان يقرأ في كل يوم اثني عشر درسًا على مشايخه شرحًا وتصحيحًا، فهو متفرّغ للعلم ليس عنده ما يشغله. والناس اليوم في دراستهم في الجامعة مثلًا كم يدرسون من محاضرة في اليوم الواحد؟ يدرسون خمس محاضرات، ومثل هذا لا يُستغرب.

أقول: إذا درس هذه المختصرات ينتقل بعد ذلك إلى المطوّلات، فيُراجع ويقرأ ويجرُد الكتب، ويكون له برنامج يسير عليه في ذلك.

يوجد تقويم إلى سنة ١٤٥٠ للهجرة، موجود مطبوع يُباع، أصدرته وزارة المالية، تقويم في مجلّد لطيف، فيه الأيام والتواريخ لهذه السنوات كلها، تستطيع أن تجعل لك برنامجًا في المختصرات والمطوَّلات والكتب التي تُقرأ صيفًا وشتاءً، متى ستُنهي هذا ومتى ستُنهي هذا، ومتى ستحفظ هذا، ومتى ستجرد المطولات، بحيث يعرف الإنسان متى سينتهي من مراحل التعلم هذه، ولا يبقى في حالٍ من التَّسويف، ثم بعد ذلك لا يخرج بطائل.

وينبغي عليه في دراسته أن يحذر من التَّشتُّت والتَّفرُّق في العلم الذي يقرأه، وهذا يقع لكثير من طلاب العلم؛ وذلك أنه لربما أراد أن يحضر درسًا من الدروس، فيذهب ويقرأ كثيرًا من الشروح كأنه يحضّر لإلقاء درس لطلاب الدراسات العليا!، إنسان عمره ربما لم يجاوز العشرين، يريد أن يدرس كتابًا مختصرًا للمرحلة الأولى أو الثانية، يريد مثلًا أن يقرأ في [شرح الأربعين النووية]، أو في [عمدة الأحكام]، ذهب يدرس عند أحد الشيوخ، فصار يحضّر أكثر مما يحضره الشيخ،

الشيخ ربما يحضر من سبعة كتب أو من ثمانية كتب، وهذا يحضّر من عشرة أو من أكثر من ذلك، ويبقي سائر ساعات اليوم وهو يحضّر!

وهذا موجود، ونتحدَّث عن أمثلة واقعية موجودة، فيأتي هذا الطالب الآن وقد صار أكثر اطّلاعًا من الشيخ، ثم يجلس وينظر في هذا الكلام الذي قيل؛ بقي كذا، هناك مسائل لم يذكرها، بقيت هناك أشياء أخرى تتعلق بهذه، وفوّت كذا وترك كذا وأهمل كذا، وما علّق على الآيات التي وردت..، ويجلس في الدرس يحسب، وكلما يُذكر يقول: هذا معروف..

فهذا لا ينتفع، وقد ذكر النووي -رحمه الله- أن هذا مما يضر به، فيزهد في علم الشيخ، وهذا لربما أوقع الإنسانَ فيه الجهل أو الحرص الزائد، لكنه لا يستطيع الموصلة؛ الآن تصوّر طالبًا يحضر للدروس التي يحضرها بهذه الطريقة، خمسة دروس بهذه الطريقة، الليل والنهار وهو يحضّر!، هل سيستطيع المواصلة كل السنوات بهذه الطريقة؟! أبدًا، تجد ربع الكتاب الأول دائمًا عنده مظلم من الكتابة؛ حواشٍ كثيرة من الشروح، ويدرس الآن في [قطر الندى] وتجد الحواشي منقولة من [أوضح المسالك] ومن [شرح الأشموني] و[حاشية الخُضيري]، وينقل من هذه

الكتب في النحو، ولربما يثقل عليه هذا جدًا، ولكنه يتحمل ويتحمل، ثم يزهد فيما يسمع، ولا يلبث أن ينقطع، يقول: لماذا أحضر؟! وهذا أخطأ..

▪ كيف يدرس؟

*[٢] العلم أيها الأحبة ليس بهذه الطريقة؛ العلم يؤخذ شيئًا فشيئًا، وعندما تأتي هذه المعلومة للطالب من غير أن يكون هذا الإنسان قد اطَّلع على الشروح فإن ذلك يكون أدعى لِعُلُوقها بقلبه.

ثم أيضًا إن الدراسة على الشيوخ تفتحُ المَغَاليق، ويُفتح عليه أمور بين يدي الشيخ –كما سيأتي–، وأيضًا يختصر عليه الزمان؛ الشيخ هو الذي يحضّر، أما أنت فقد اختُصر لك ذلك، ويُقدَّم لك من العلم ما تحتاج إليه، وما يُقدَّم لك من العلم تفرح به وتأنسُ به وتُسَر، فوائد جديدة.

ولكن **الصحيح في نظري** –وأقوله بعد تجربة– أن يأخذ الإنسان الكتاب المختصر وينظر فيه قبل الدرس ويتأمل ويُدقّق النَّظر، ويستخرج الإشكالات، ويحأول أن يُجيب عنها، ثم بعد ذلك يُقيّد أو يُأشِّر على الأشياء التي لم يستطِع أن يُجيب عنها –الإشكالات–، ثم يأتي يحضر الدرس، لا يحضر خالي الذِّهن كما يفعل أكثر الطلاب وهو لا يدري أصلًا ما هو الموضوع الذي سيُشرح، هذا خطأ.

[٢] بداية الجزء الثاني، رابط الدرس الصوتي: https://goo.gl/3ywUV0

بل هو متصوِّر للمَتن، الشيخ سيشرح هذه المسائل، ثم يسمع الشرح ويُعلّق بما يحتاج إليه، وينظر في الإشكالات التي أورَدَها على نفسه وأجاب عنها؛ هل أجاب عنها الشيخ؟ وهل هو موافق لجوابه أم لا؟ ويختبِر بذلك ذِهنه. والمسائل التي ما أجاب الشيخ عنها، بعدما ينتهي الدرس يسأل، فإن شفاه ذلك اقتنع بالجواب، وإلا سأل غيره، فإن وجد وإلا رجع للكتب وبحث.

فتَعْلَق بِذهنِه ولا تخرُج منه -إلا ما شاء الله-، راجَعَها، ضَبَطَها.

فإذا رجع من الدَّرس راجع المتن مع التعليقات، ثم قرأ المقطع الجديد الذي سيُشرح في الدرس القادم بنفس الطريقة، وهكذا كل مرة، فإذا أنهى فصلًا راجع الفصل كاملًا، وإذا أنهى بابًا راجع الباب بكامله، وإذا أنهى الكتاب راجع الكتاب بكامله.

أما الواقع فهو بخلاف ذلك تمامًا! يأتي الطلاب والواحد منهم خالي الذِّهن تمامًا، لا يدري ما الذي سيُشرح أصلًا، ويحضُر ولربما ذهنه هنا أو هناك، ثم بعد ذلك يرجع ولا عَهْدَ له بالكتاب!

فإذا كان يُختبر في هذا الكتاب، في أيام الاختبار راجع في أسبوع أو أسبوعين وكأنها أثقل عليه من الجبل، اسألوا طلاب الكليات الشرعية؛ عامَّتهم بهذه الطريقة، ولذلك يتخرَّج عامَّتهم بشهادة يُمكن أن يُقال أنه تخرَّج موظفًا أو كاتبًا أو نحو ذلك، عوَّام! إذا جلست معه أو سمعت أسئلته أو نحو ذلك تجدها أسئلة عوام، وهو متخرّج من كلية الشريعة؛ السبب هو هذا، يراجع في أسبوع.

وبعضهم يظن أنَّ هذا هو العلم الشرعي، وأنه يُحصَّل بهذه الطريقة، ولذلك بعضهم كان يَسْتكثِر أن يقضي أربع سنوات في كلية شرعيَّة، ويقول: أنا أستطيع أن أحفظ هذ المذكَّرات وأنا جالسٌ في البيت، وأدرس في كلية ثانية. ولهذا بعضهم خرج من الجامعة والتحق بكلية أخرى، وقال: أنا أستطيع أن أتواصل مع أحد الطلاب وهو يصوّر لي هذه المذكرات، أقرأها وأحصل على علامات أفضل من الطلاب!

هو فعلًا قد يحصل على علامات أفضل من الطلاب لكنه لن يكون طالب علم.

وهذه أمور حصلت، وأعرف من حصلت لهم وهم عوّام الآن، هذا كلام من سنة ١٤٠٨، كان يظن أن العلم الشرعي مذكّرات يحفظها أيام الاختبارات، فلماذا أجلس أربع سنوات؟! وهو يظن أن الوضع الطبيعي هو هذا، وهذا خطأ؛ **العلم الشرعي أن تُعطي العلم كُلَّك فيُعطيَكَ بعضه**، تَعْتَكِفُ عليه كلَّ الوقت، الليل مع النهار، وإلا لن تُحصِّل منه شيئًا..

على كل حال، لا ينتقل من كتاب حتى يُتقِنَه، الشَّيخ محمد بن قاسم -رحمه الله- لو قرأتم في بعض ما كُتب عنه، كان يكتب كل ما يذكره الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله-، يقول: "كنت أُقيِّد كُلَّ شيء"، حتى كان يكتب أن الشَّيخ توقَّف هُنا هُنَيْهَة، يقول: "وكان الشيخ يسمع صَرِيفَ قلمي فيتمهَّل أو يتوقَّف حتى أنتهي"، يقول: "ولا أكتب شيئًا إلا وفهِمْتُه"، أما نحن لأننا نأخذ العلم بالجُملة فتأتي أشياء كثيرة في العلم ربَّما ليست جُملًا وإنما هي مِن قَبِيل الفصول أحيانًا بكاملها وأبواب وما فهمناها!

تقول: (باب العلة في القياس- الوصف المناسب)، يقول لك هذا أستاذ يدرّس أصول الفقه، يسأله أحد الطلاب عن مسألة، يقول له: "خُذها قاعدة: اسألنا عمَّا ندرس"!، هم يدرّسون بعض الأبواب ويتتابعون في دراستها، وباقي الأبواب لا تسأل الشيخ عنها!

هو يتحدَّث طبعًا عن أمثاله، المفروض أنَّ هذا إنسانٌ مُتخصِّصٌ في أصول الفقه، يكون قد فَهِم هذا العلم وحفظه وضبطه.

ماذا يدرس؟

على كل حال، كَتَبَ الكاتبون كثيرًا فيما يُدرس مِن كُتُب، وكيف يتدرَّج الإنسان فيها، والذي أظنه أقرب -والله تعالى أعلم- أنه لا يصلُح أن نجعل للناس برنامجًا موحَّدًا للجميع؛ فالناس يتفاوتون في فَهْمِهم وفي خَلفِيَّتِهم العلميَّة ونحو ذلك، كما قلت حينما نأتي لأُناس في العقيدة لماذا نغفل أنهم في دراستهم في الابتدائي والمتوسط والثانوي درسوا كتاب [الأصول الثلاثة] و[القواعد الأربعة] و[كتاب التوحيد].

حينما ننظر إلى الفقه نجد أنهم درسوا في العبادات والمعاملات إلى مرحلة الثانوية، وربما درسوا في المرحلة الثانوية، أو في تحفيظ القرآن ربما درسوا شيئًا من مصطلح الحديث، أو ربما أصول الفقه، وهكذا في الحديث درسوا أشياء. فلا يحسُن أن نجعل للجميع برنامجًا بطريقة موحَّدة.

لكن يمكن أن نقول على سبيل المثال: في **التفسير** لو أراد الإنسان أن يدرس دراسة تخصُّصيَّة، نقول على سبيل المثال: ابدأ في البداية بغريب القرآن، خذ كتابًا مِثل [المعجم الجامع في

مفردات غريب القرآن] للسَّيْرَوَان، جَمَع أربعة كتب مهمة، واقرأ القرآن في ختمة في الشهر وكل كلمة تَلتَبِسُ عليك ارجع إليها واضبط الغريب.

ثم اقرأ [التفسير الميسَّر] طبعة المجمّع، ثم بعد ذلك يمكن أن تقرأ [تفسير السَّعدي]، ثم بعد ذلك تقرأ مختصر ابن كثير الذي هو [المصباح المنير] الذي أشرف عليه المباركفوري، أو تقرأ مختصر الشيخ أحمد شاكر الذي هو [عُمدة التفسير].

طبعًا هذه قراءة، هل من يقرأ التفسير مرة واحدة معناه أنه سيحفظه؟ أبدًا، إنما مَنْ كان يريد له بَصَرًا في التفسير فيجب أن يدرس ذلك على أحد ممَّن هو مُميَّز في هذا العِلم.

وهكذا في سائر العلوم؛ في **علوم القرآن** مثلًا يُمكن أن يبدأ بكتاب [أصول التفسير] للشيخ ابن العثيمين -رحمه الله-، وهو كتاب في علوم القرآن، ثم [مباحث في علوم القرآن] للقطان، ثم الإتقان]، أو نقول يبدأ بـ[رسالة السُّيوطيّ في أصول التفسير]، ثم [التَّحبير]، ثم [الإتقان]، هذه ثلاثة كتب مَن درسها قد لا يحتاج إلى غيرها.

وهكذا حينما يدرس **أصول التفسير**، بعد أن درس هذه الكتب في علوم القرآن يستطيع أن يدرس [مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-]، ويدرس كتاب [فصول في أصول التفسير].

في **الفقه** حسب حال الإنسان؛ ناس في الأقليات الإسلامية مثلًا، أو طفل صغير نريد أن نعلّمه مبادئ في الفقه وما درس في بلاده الفقه، نقول يمكن أن يبدأ بكتاب [نور البصائر

والألباب في معرفة الفِقه بأقرب الطُّرق وأيْسَر الأسباب] للسعدي -رحمه الله-، أو نبدأ بكتاب [منهج السالكين].

ولكن إنسان درس الفقه في مراحله التعليمية عندنا؛ نقول: نبدأ به مباشرة بكتاب [العمدة في الفقه] أو بكتاب [دليل الطالب] أو بكتاب [زاد المُستقنِع]. ثم في المرحلة الثانية يمكن أن يدرس كتاب [المُقنع] أو كتاب [الرَّوض المُربع]، ثم كتاب [الكافي] ثم [المُغْنِي] بالطريقة التي ذكرت في التعليم.

في **أصول الفقه** يمكن أن يبدأ بـ[الورقات] أو [الأصول من علم الأصول] للشيخ العثيمين -رحمه الله-، ثم كتاب [قواعد الأصول ومعاقد الفصول] ثم [روضة النَّاظر]، ثم بعد ذلك يستطيع أن يدرس [المُستصفى] و[الآمدي] وغير ذلك من الكتب.

وهكذا أيضًا **بالقواعد الفقهية** لو بدأ بـ[منظومة السعدي]، يمكن أن يقرّأ مثلًا [القواعد الفقهية] للنَّدْوي فهو يعرّفه بالقواعد وما يتَّصل بها وبعض الفُرُوقات، ويذكر له القواعد الخمس الكبرى، لكنه لا يخلو من نَفَسٍ حنفيّ، والكتاب مفيد.

وهكذا كتاب [القواعد والأصول] الجامعة، ثم بعد ذلك كتاب [القواعد] للبرنو مثلًا، ثم بعد ذلك يستطيع أن يدرس مِثل كتاب [الأشباه والنظائر] للسيوطي أو غيره .

وهكذا في **الحديث** يبدأ بالأربعين مثلًا، ثم في [عمدة الأحكام]، ثم في [البلوغ] أو [المحرَّر]، ثم في [المنتقى]، ثم في كتب الحديث يبدأ بالصحيحين كما سبق ثم بالسنن، إلخ.

في **علوم الحديث** يمكن أن يبدأ بـ[التَّذكِرة] لابن المُلَقِّن، أو [البَيْقُونيَّة]، كلٌّ بحسب حاله، إذا كان عنده شيء من الخلفية لا يحتاج أن يبدأ بهذه، يبدأ مباشرة بـ[النُّخبة] مثلًا، ثم [النُّزهة] أو [المُوقِظة] ثم [ألفيَّة] السيوطي أو العراقي.

في **النحو** يمكن أن يبدأ بـ[الآجِرُّوميَّة] أو [النحو الواضح]، إذا استفاد من مراحله التعليمية الثلاث فإنه لا يحتاج إلى [الآجرومية] إنما يمكن أن يبدأ بـ[المُلْحَة] أو [قَطْر النَّدى]، ثم بعد ذلك [شُذُور الذَّهب]، ثم بعد ذلك [الألفية]، وإن أراد أن يتوسَّع فعنده مجال أن يتوسع.

في **العقيدة** يمكن أن يبدأ بـ[الأصول الثلاثة]، [كتاب التوحيد]، لكن إذا قال: هذه الأشياء أنا درستها وفهمتها في مراحل التعليم وحصَّلتُها، نقول له: عندك [الواسطيَّة] و[الحَمويَّة] ثم [الطَّحاوية] ثم [التَّدمُريَّة] ثم بعد ذلك تستطيع أن تتوسَّع في الكتب الأخرى.

بعض الكتب يُغني عن بعضها؛ فلو أراد إنسان أن يدرس [معارج القبول] فهو يُغنيه وما يحتاج إلى دراسة مثلًا [الطحاوية] مع [التوحيد] مع [الواسطية]، كثرة التآليف كما قال ابن خلدون -رحمه الله- هي من المعوِّقات عن التَّحصيل، ولو أراد أن يستغرق العمر في دراسة فنٍّ واحد ما استطاع من كثرة هذه الكتب.

فالمقصود أن هذا يختلف باختلاف الناس. أنا رأيتُ بعض من كَتَب، وقد نصحتُ بعض المشايخ أو بعض طلبة العلم ممن كتبوا وأخرجوا ذلك في كتاب أن لا يكتبوا؛ لأن هذا يختلف باختلاف الناس، ولا تزالُ الكتب تخرج، يخرج الكتاب نقول أحيانًا: هذا أفضل لو تعلَّم الناس في هذا كان أسهل وأنفع، وهكذا.

فالشاهد أنَّ هذه لا تُقال للجميع، أن يبدأ الجميع بهذه الطريقة؛ وإنما كلٌّ بِحَسْبِه، الناس يتفاوتون، وليس الإنسان مُقيَّدًا بدراسة كتاب.

ويختلف هذا أيضًا بحسب البلدان؛ إذا كان الإنسان يدرس في بلدٍ على مذهب المالكية أو الشافعية مثلًا فلا نأتي كما يفعل بعض الإخوان ويضع له كتابًا في الفقه الحنبلي، ولا يأتي ويضع له كتابًا في الفقه لمؤلّف من الحنابلة.

وحتى في أصول الفقه عندنا طرق معروفة؛ طريقة الأحناف، وطريقة الشافعية، والطريقة التي جمعت بين الطريقتين، لكن أيضًا مهما استطعنا أن ندرّس بشيء يكون أكثر انسجامًا بالمنظومة التعليمية فهو أفضل.

لغير المتخصّصين ليس بلازمٍ أن نأتي ونقول: ادرس [الأصول الثلاثة]، وادرس [كتاب التوحيد]، لا؛ ممكن الإنسان يدرس كتاب عمر الأشقر في العقيدة.

في الفقه يمكن أن يدرس الإنسان كتاب [الملخّص الفقهي] للفوزان، أو يقرأ كتاب [فقه السُّنة] للسيد سابق. وفي الحديث يمكن أن يقرأ في كتاب [شرح جوامع الأخبار] للسعدي، يمكن أن يقرأ [شرح رياض الصالحين] للشيخ العثيمين -رحمه الله-، ويقرأ شرح الشيخ ابن العثيمين لـ[لأربعين النووية].

في النحو يقرأ كتابًا وُضع للموظَّفين وللمشغولين اسمه [التذكرة في قواعد اللغة العربية] للباشا، هذا كتاب جميل وسهل، وإنْ كان كَتَبه على طريقة غير معهودة، لكنه كتاب جيد، حتى فيه تمرينات، وجُمل يقول: ردِّدها بصوت مرتفع من أجل تحصيل شيء من المَلَكة في اللِّسان

للبلاغة والبيان ونحو ذلك، جُمل جميلة وحِكم جاء بها مَشكُولة، أيضًا تجد: قل أو لا تقل، وهو كتاب جيد كَتَبه للمشغولين، فيمكن أن نقول لهؤلاء: اقرؤوا كتاب [النحو الواضح] للجارم، أما أن نقول لهؤلاء: لا بد أن تدرسوا [الآجرومية] ثم [قطر الندى] أو [الملحة]، هذا كلام غير صحيح!

في **الفقه** يمكن أن يقرؤوا في [الواضح في أصول الفقه] مثلًا من أجل أن يطَّلع ويعرف ما هي أصول الفقه وليس ذلك بلازم، يمكن أن يستغني عنه.

في علوم الحديث يمكن أن يقرؤوا في كتاب [البيقونية] مثلًا أو كتاب ابن الملقن، في علوم القرآن يمكن أن يقرأ كتاب [مباحث في علوم القرآن] للقطان، في التفسير يمكن أن يقرأ [التفسير الميسر] طبعة المجمّع أو [تفسير السعدي].

على كل حال هي وجهات نظر، والناس يتفاوتون، وقد جرَّبنا وحاولنا في كل فن أن نكتب للمتخصصين فيه، فاخترنا سبعة تقريبًا في كل فن ممن عُرفوا بالتمهُّر في كل فن، قلنا لهم اكتبوا لنا الدرجات الثلاث في هذا الفن، نريد برنامجًا يُخرِّج علماء، بعضهم اقترح علينا مذكرات، وبعضهم قال: اكتبوا وأَرُونا إيَّاه، وبعضهم كَتَب. فلما قارنّا الكتابات التي وُجدت في جدول وجدنا أنَّ بعضهم يضع هذا الكتاب في المرحلة الأولى والآخر يضعه في المرحلة رقم ثلاثة، فما استفدنا من تلك الكتابات شيئًا!

كنا نريد أن نضع برنامجًا ينزِل في الانترنت ويُوزَّع ويُقام منه برنامج عملي في التعليم، ويقال هذا كتبه نخبة في كل فن من أهل الاختصاص، سبعة تقريبا، ولكن ما خرجنا بنتيجة؛ كل واحد له رأي، ومن هنا تعرف أن هذه المسألة تقدِيريَّة تختلف فيها وجهات النظر.

ومن هنا أقول أن الكتابة في هذا تبقى وجهة نظر عند صاحبها، قد يغير رأيه بعد حين، ولذلك الذي لاحظته، الذي يكتب هل درس هذه جميعًا؟ في البلاغة والنحو وعرف الكتب جميعًا في النحو والأصول والبلاغة وفي التجويد ومصطلح الحديث، درس كل هذه الكتب حتى يقول هذا هو الأفضل في مادَّته وأسلوبه؟!

يصعب أن يأتي إنسان ويقول: أنا درست هذه الأشياء ودرست غيرها واخترتها من بين كتب الفن في كل فن، يمكن أن يتكلَّم في تخصصه، لكن أن يتكلم عن جميع التخصصات!

ولهذا رأيت بعض من يكتب يضع الكتاب في المستوى أو البعض يضعه في المستوى الثاني، كتاب [قواعد التفسير] بعضهم وضعه في المستوى الأول وبعضهم وضعه في المستوى الثالث، كتاب [مناهل العرفان] للزرقاني ليس لي تحقيق في [المناهل] للزرقاني، دراسة تقويميّة، بعضهم كتب: "[المناهل العرفان] للزرقاني في المستوى الثالث تحقيق السَّبْت"، وأنا لا حقَّقته ولا شيء!

هذا يدلّ على أنه لم يقرأه، لو قرأه ما كتب هذا الكلام، ولذلك لا يحسُن بالإنسان أن يتطفَّل على الفُنون ويأتي ويقول في كل فن: أنا أوجّه وأُرشد، واقرأوا هذا في الفن الفلاني، واقرأوا هذا واقرأوا هذا!

إنما يُترك هذا لأهل الاختصاص، وأهل الاختصاص كما قلت لكم يختلفون.

• رابعًا: بين التَّخصُّص والموسُوعيَّة

السعدي –رحمه الله– يقول: "**العلم أكثر من أن يُحصى، فخُذْ من كل شيء أحسنه**"، ولهذا يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي –رحمه الله–: "إذا أردتَ أن تكون عالمًا فاقْصِد لفنٍّ من العلم، وإذا أردتَ أن تكون أديبًا –يعني كما نقول اليوم مثقفًا– فخُذ من كل شيء أحسنه"؛ يعني يُقمِّش من العلوم ولا يكون مُحقِّقًا في علم منها.

وهكذا أبو عبيد القاسم بن سلَّام –رحمه الله– كان يقول: "ما ناظرني رجلٌ قطُّ وكان معنيًا في العلوم إلا غلبته، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذلك"، وكانوا يقولون كما كان يقول أبو حيان: "لا يمكن أن يبلغ الإمامة في العلم من ينظر في العلوم المختلفة"؛ يعني قد فرَّق جهده على العلوم المختلفة، يريد أن يكون مُحصِّلًا في الفقه وفي الأصول وفي التفسير وفي الحديث وفي غير ذلك.

طبعًا كما يقال: "ازدحام العلوم مَضَلَّة للفُهوم"، مع أنه وُجد من توسَّع في العلوم ونَبَغ في كثير منها، الأعمش مثلًا يقول: "كان مجاهد لا يَسْمَع بأُعجوبة إلا ذهب لينظر إليها، ذهب لحضرموت ليرى بئر بَرَهُوت، وذهب إلى بابل إلى والٍ هناك ليسأله عن هاروت وماروت"، وكان الدَّارقُطني –رحمه الله– إذا ذُكر شيء من العلم وُجِد عنده منه نصيب وافر، ذُكر الأَكَلة في يوم من الأيام –يعني الذين يأكلون كثيرًا–، دُعي الدارقطني على العشاء فجلسوا يتحدثون عن الناس الذين يُكثرون من الأكل، فاندفع الدارقطني يُورِد نوادر الأَكَلة حتى قطع أكثر ليلته بذلك!

وتعرفون الشَّعبي -رحمه الله- كان يقول: "أقلُّ ما أحفظه الشعر، ولو شِئتم أحدثكم شهرًا لا أُعيد بيتًا"، هذا أقل شيء!

وهذا الإمام محمد بن عبد الباقي الأنصاري المتوفَّى عام ٥٣٥ يقول عن نفسه: "حفِظتُ القرآن وفي عمري سبع سنين، وما من عِلم في عالم الله إلا وقد نظرتُ فيه وحصَّلت منه بعضه أو كله"، ولما أُسر في أيدي الروم تعلَّم منهم اللغة الرومية والخط الرومي.

وهذا ابن الخشاب النحوي الحنبلي المتوفَّى سنة ٥٦٧ يقول: "إني مُتقن في ثمانية علوم ما يسألني أحد في علم منها ولا أجد لها أهلًا"، وهكذا أبو البقاء السبكي المتوفَّى سنة ٧٧٧ يقول: "أعرف عشرين علمًا لم يسألني عنها بالقاهرة أحد". طبعا لا تستعجل وتقول هذه مبالغة، انظر إلى كتاب مثل [مفتاح السعادة ومصباح السيادة] لطاش كُبري زاده، في ثلاث مجلدات ذكر فيه علومًا كثيرة لم نسمع بها، بالعشرات.

وهذا أيضًا محمد بن أبي بكر بن جماعة المتوفَّى سنة ٨١٩ يقول: "أعرف خمسة عشر علمًا لا يعرف علماء عصري أسماءها"، وهكذا أيضًا محمد بن أحمد المالكي المتوفَّى سنة ٨٤٢ قال: "أعرف عشرين علمًا ما سُئلت عن مسألة منها"، وهكذا أحمد بو نافع من المغاربة المتوفَّى سنة ١٢٦٠ يقول: "عندي أربعة وعشرون علمًا لم يسألني عنها أحد".

والجَبَرتي والد المؤرِّخ المعروف صاحب الكتاب [عجائب الآثار]، يقول عنه ولده المؤرخ يتكلم عن تفنُّنه في علوم الشرع، يقول: "اعتكف عشر سنوات من سنة ١١٤٤ الى ١١٥٤ لدراسة العلوم التجريبية من الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلها، حتى النجارة والخراطة

والحدادة والسمكرة والتجليد والنقش والموازين، حتى صار بيته زاخِرًا بكل أداة في صناعة وكل آلة".

السيوطي تكلم عن نفسه وقال أنه بلغ رتبة الاجتهاد في سبعة علوم، ولذلك قام عليه علماء عصره وشنُّوا عليه هجمة شَعْوَاء، وتكلَّموا في حقه كثيرًا كما هو معروف.

على كل حال من الناحية العمليَّة الواقعية نقول: يصعُب جدًا أن الإنسان يكون محققًا في علوم شتى، يعني كالمتخصص، أما الإنسان يكون عنده إلمام في هذا وفي هذا، لكن إذا جلس مع المتخصصين فإنهم يفوقونه؛ فهذا ممكن. لكن أن يكون مُحرِّرا مُحقِّقا في علوم مختلفة هذا أمر يصعب جدًا من الناحية الواقعية، لا سيما في زماننا هذا على تقاصُر الهمم، وقلة العلماء الذين يُؤخذ عنهم.

ولهذا نقول: ينبغي للإنسان أن يكون واقعيّا فيُلِمُّ بكل عِلم بطَرَف، ويتخصَّص في فن واحد، وهذا كما يقول بعض الظُّرفاء من المصريين: "خُذ من كلِّ شيء شيئًا، ومن شيء كل شيء"؛ يعني خذ من كل علم بطرف بحيث يرفع عنك الأميَّة في هذا العلم، كما قال يحيى بن مجاهد الزاهد: "كنت آخذ من كل علم طرفًا؛ فإن سماع إنسان قومًا وهو لا يدري ما يقولون أو لا يدري ما يقول هو غُمَّةٌ عظيمة".

وابن الجوزي -رحمه الله- يذكر بعض أحوال الـمُشتغلين بالعلم ممن لا دِراية لهم بغير فنّهم يقول: "أدركنا من قرأ الحديث ستين سنة فدخل عليه رجل فسأله في الصلاة فلا يدري ما يقول، وأدركنا من بَرَع في علوم الفقه فكان إذا سُئل عن الحديث لا يدري ما يقول، وأدركنا من

برع في التفسير فقال له رجل يومًا: إني أدركت ركعة من صلاة الجمعة فأضفتُ إليها أخرى فما تقول؟ فسبَّه ولامَهُ على تخلُّفه عن صلاة الجمعة، ولا يدري ما الجواب. وأدركنا من برع في علوم القراءات فكان إذا سئل عن مسائله يقول: عليك بفلان".

هذا أمر لا يحسُن ولا يجمُل بالعالم، وهذا موجود؛ تجد إنسانًا متخصّصًا مثلًا في أصول الفقه يذكر الأحاديث الضعيفة، وإذا سُئل عن مسائل فقهية تجد لا بَصَرَ له إطلاقًا فيها، وهو من العامة في الفقه، وهذا أمر لا يحسُن. وهكذا تجد المتخصص في التفسير لا يعرف أن يُخرِّج حديثًا ولا يميّز بين الصحيح والضعيف، وهذا أمر لا يليق، وإنما يكون عنده شيء من البصر في العلوم المختلفة، ولكنه يتخصَّص في علم أو في علمين كل بحسب ما أعطاه الله –عز وجل– من القدرات.

نحن نشاهد في عصرنا الحاضر مِن العلماء في عصرنا الحاضر مَن برع في أكثر من علم؛ يعني لو نظرت للشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– في علوم العربية، في التفسير، في أصول الفقه، وله مشاركة قوية وجيدة في الفقه، والحديث، وفي العلوم أخرى كالمنطق وغيره، هذا موجود.

ابن عاشور –رحمه الله– تكلَّم على سبب الإقبال على الدراسة الموسوعية؛ الذي يريد أن يكون عالمًا في كل فن، وله في ذلك وجهة نظر، هو يرى أنه لما دخلت الفلسفة على المسلمين والعلومّ الفلسفية مترابطة، وأنه لما أقبل عليها من أقبل كالغزالي وأمثال الغزالي، يقول: تأثروا بذلك وأرادوا نقله إلى العلوم الشرعية، فأرادوا مُحاكاة ما عرفوه بالفلسفة، فصار الواحد منهم

يريد أن يكون محققًا في علوم شتى، فنجد العالم يريد أن يكون فقيهًا أصوليًا نحويًا أديبًا شاعرًا!
يقول: بهذه الطريقة اضمحَّلت صفة الاختصاص العلمي والإمامة في علم معيَّن.

يقول أن هذا أضرَّ العلم بانصراف طلبته عن تحقيق العلوم، حتى إنَّ مّن يكون في طبعِه الميل إلى التَّحقيق إذا جمع بين التحقيق والمشاركة توزَّعت مواهبه لأنه يطلب المشاركة والبحث في جميعها، وبالضرورة يقتنع من كل علم يعني بشيء قليل لا يكون به محرّرا ولا محقّقا.

وإذا أراد الإنسان أن يتخصص، طبعًا هذا التخصص لا يأتي في البداية، هو يدرس كما قلنا متنًا مختصرًا في كل فن، ولكن هل يحتاج أن يدرس في النحو ثلاث كتب؟ في المصطلح ثلاثة كتب؟ وفي الأصول ثلاثة كتب على مستويات مختلفة؟ الجواب: لا.

طبعًا مرحلة التخصص عندنا –لو نظرتم إلى كليات الشرعية مثلًا– تجد عندنا كلية أصول الدين، تُعنى بأصول الدين؛ القرآن وعلومه، الحديث وعلومه والعقيدة. تجد كلية الشريعة تُعنى بالفقه وما يحتفُّ به ويتَّصل من الأصول والقواعد وما إلى ذلك، فهذا نوع من التخصص في الواقع، وهناك تخصُّص أدقَّ من هذا، فقد يتخصَّص الإنسان في القواعد الفقهية فقط أو في أصول الفقه.

وهناك من يُنادي بالتخصص في جُزئية من هذه؛ مثلًا يتخصص في باب القياس فقط، بل يمكن أن يتخصص مثلًا في طرق استخراج العِلَّة في القياس، نقول: أنَّ هذا فيه مبالغة، يمكن أن يكتب فيه بحوثًا أو رسائل أو نحو ذلك، لكن أن يكون هذا فقط الذي يدرّسه ويُدندن حوله لا؛ فهذا يمكن أن يكون في الطِب، يتخصَّص في العظام، وفي عظم واحد، يمكن أن

يتخصص في عصب واحد لا إشكال، ويُحتاج إلى مثل هذا. لكن العلوم الشرعية مترابطة، الإنسان فقط يقضي العمر -كما يفعل بعضهم- على حرف من حروف المعاني! متى سيدرس باقي حروف المعاني؟ متى سيدرس اللغة؟ متى سيدرس النحو؟ وهكذا..

فإذا أراد أن يتخصَّص بماذا يبدأ؟

بعض العلماء كانوا يُوصون ببعض الفنون؛ يعني الشافعي -رحمه الله- يُوصي يونس بن عبد الأعلى يقول: "عليك بالفقه فإنه كالتُّفاح الشامي يَحمِل مِن عَامِه"؛ بمعنى أن الفقه إذا درستَ مسائله يصير عندك بَصَر فيها مباشرة؛ تعرف حكم هذا كذا وحكم هذا كذا، لكن حينما تريد أن تدرُس أصول الفقه أو تدرس التفسير أو تدرس العلوم هذه، تحتاج لمدة طويلة حتى يظهر أثرها بعد حين، أما الفقه كلُّ مسألة يدرسها الآن صار في باب الطهارة ما شاء الله، صار في باب الصلاة له بصر فيه.

والخطيب البغدادي -رحمه الله- يقول: "بأن العلوم هي أبازير الفقه"؛ أبازير مثل ما نقول البهارات، "وليس دون الفقه علم إلا وصاحبه يحتاج إلى أقل ما يحتاج إليه الفقيه؛ لأن الفقيه يحتاج أن يتعلّق بطرق معرفة كل شيء من أمور الدنيا والآخرة وإلى معرفة الجد والهزل والعادات المعروفة منهم".

وهكذا ابن الجوزي أيضًا يوصي بالفقه ويقول: "عليه مدار العلوم، فإذا اتَّسع الزمن يأخذ بعد الفقه".

ولكن لو قيل غير هذا، كل إنسان بحسب ميوله؛ لأن الإنسان إنما يُبدع إذا كان عنده رغبة في فن من الفنون، وهذا لا نقوله في العلوم الشرعية فقط، لو جاءنا إنسان وقال: أنا في العلوم الشرعية لا أصلح، أنا لا أفهم، وإذا حضرتُ مجالس العلم إنما أحضر للبركة، لكن في الرياضيات أُبدع فيها، نقول: تخصَّص في الرياضيات ولا تنقطع من مجالس العلم.

وآخر يقول: أنا رغبتي كلها في الطب، وفي العلوم الشرعية رغبتي ضعيفة وفهمي ضعيف، نقول له: ادرس الطب ولكن لا تنقطع من العلم الشرعي، ولكن لا تحلم أحلام اليقظة؛ أنك ستكون عالمًا في العلوم الشرعية، لا يمكن هذا!

وهكذا أيضًا الذين يدرسون في العلوم الشرعية يقولون: في ماذا أتخصص؟ نقول من الخطأ خاصة في الدراسة النظامية الآن في ماجستير أو الدكتوراة، قد يدخل تخصّصًا في مجال لا رغبة له فيه حتى في الجامعة لكن لأنه قُبِل في هذا المجال، هذا لا يُبدع، أو لأن والده أرغمه على ذلك هذا أيضًا لا يُبدع؛ إنما يدخل في المجال الذي يرى أنه يستطيع أن يُبدع فيه، ويجد رغبته فيه، وإذا وُجدت هذه الرغبة فإنها تدفعه دفعًا تلقائيا، تكون عنده رغبة جامحة قوية فيحصّل من العلم، وتكون نفسه مُستشرِفة لمزيد من التحصيل.

• خامسًا: بين التعليم المباشر والتعليم بالوسائط

لا شك أن لقاء الشيوخ والجلوس بين أيديهم كمال من الكمالات، وذلك كما قال ابن خلدون والخطيب البغدادي والشاطبي بأن الإنسان حينما يذهب ويرحل إلى أهل العلم ويجلس بين أيديهم فإن ذلك يؤثر في سلوكه وأخلاقه وهَدْيِه وسمته ودلِّه وطريقة التعليم، ويَنْفَتِح له بين يدي الشيوخ مِن مَغَاليق العلم ما لا يخطر له على بال، فالمسألة قد يقرأها الإنسان ولا تتبيَّن له، فإذا جلس متواضعًا بين يدي الشيخ فإنه يُفتح عليه -كما يقول الشاطبي- ذلك المُنغَلِق ببركة تلك المجالس.

لا شك أن الجلوس بين يدي الشيوخ هو تربية وتعليم في آنٍ واحد، لأنه يستفيد منهم الهَدْي والدَّلَّ والسَّمْت وطريقة التعليم، ويستفيد منهم العلم، ويأخذ العلم من أفواههم شيئًا فشيئًا حتى تحصل له المَلَكة والدُّرْبَة، والطَّبعُ لِصٌّ، كما قيل: "الطبع سرَّاق"؛ الإنسان يتأثر بمن يراهم ويشاهدهم، فكيف بمن يتلقَّى عنهم العلم؟!

ولذلك تجد الإنسان حينما يتلقَّى عن أحد فإنه يتأثر به، ولذلك يقال: ينبغي للإنسان أن يتخيَّر الشيوخ الذين يتلقَّى عنهم العلم.

وأما إذا كان الإنسان يتلقَّى من الكتب -كما هو مشاهد- فإنه يحفظ بتَصْحِيْفٍ وتَحْرِيف، ولربما لا يفهم كثيرًا من المسائل على وجهها الصَّحيح، وكذلك أيضًا يحصل لهذا الإنسان من الآفات والأَدْوَاء ما لا يخطر على بال؛ غرور وكِبر وعُجْب بنفسه! كما يقول بعضهم: أنا في مدة وجيزة حصَّلت علم سنين من الكتب، لم يجلس على يد الشيوخ، ثم ماذا؟! هؤلاء تلاشوا

انتهوا، أنا أحدّثكم عن سنين يمر بها جُموع من الطلبة العلم، وترى أشياء غرائب وعجائب وآفات، تجد الواحد منهم ربما معجبًا بما حصَّله وحفظه وما درسه وما قرأه، ثم ما يلبث أن يتلاشى ذلك جميعًا، بخلاف مَن كما يقول الشاطبي -رحمه الله-: "ربَّاه الشيوخ"؛ ولهذا كان يقول في كتابه [الموافقات]: "لا أُبيح لأحدٍ أن يقرأه إلا ممن تربَّى على يد الشيوخ".

والعلماء الرَّبانيُّون إنما يتخرَّجون من مجالس العلم، من حِلق العلم، أما الإنسان الذي لا يعرف هذا فلربما يكون له من الأَنَفَة ومن الكِبر ومن الأدواء والأمراض ما لا يُقدِّر قَدْرَه، فإذا جاء طالبٌ يردُّ عليه أثناء الدرس في مدرسة أو في كلية أو نحو ذلك، يردُّ عليه خطأ أو يُصحِّح له وَهْمًا أو نحو ذلك، فلا تسأل عن ضجره وغضبه وحاله وتغيُّره!

على كل حال، ينبغي أن يُراعى هذا الجانب، والإمام أحمد -عليه رحمة- الله يقول: "إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخ فمَعَ مَن العَيْش؟"، وابن جماعة يُحذِّر من أن ينظر الإنسان لنفسه بعَيْن الجمال والاستغناء عن المشايخ؛ فإن ذلك عَيْن الجهل وقلة المعرفة، وما يفوتُه أكثر مما حصَّله.

العلماء عبارتهم كثيرة جدًا في هذا المعنى وَهُم مَن خَبَروا العلم وخَبَروا الناس، وأنت تشاهد إذا كان الإنسان موفقًا لحضور مجالس العلم يُشاهد الفرق بين حاله حينما كان منقطعًا عنها وحاله حينما كان يحضر.

لكن نقول: إذا ما تيسَّر، أو الدروس الموجودة التي عِبناها في أول الكلام التي تكون في يوم واحد في الأسبوع، نقول: لا تنقطع احضر، لكن كيف توفِّي ما بقي؟ نقول: الأمور متيسِّرة

الآن، إنسان يقول: أنا أعيش في مكان بعيد، ما عندنا شيوخ، أنا أعيش في قرية أو أقليات مسلمة أو نحو هذا؟ نقول: افتح الإنترنت، الآن تستطيع أن تسمع وتستطيع أن تسأل وتستفيد.

فنقول للإنسان الذي لا يتيسَّر له أن يجلس على يد الشيوخ أو توجد دروس قليلة يوم في الأسبوع، نقول: احضر هذا اليوم، واستمع الأشرطة، توجد الآن أشرطة السيدي هذه [ميراث الأنبياء] وهي رخيصة في السيدي نحو ٧٠ أو ٨٠ ساعة صوتية بخمسة ريالات، وبعضها بريال، هذه سُجِّلت وتُعب في تسجيلها، يمكن أن يجعل الإنسان لنفسه برنامجًا؛ هذا الشيخ يشرح من الطهارة متى سيصل إن شاء الله في يوم في الأسبوع للمعاملات؟ سيصل بعد ثلاثين سنة على طريقته هذه! أنا من الآن أبدأ في المعاملات كل يوم على هذه الأشرطة، ودفتر للفقه أكتب فيه المسألة التي ما فهمتها، أكتب السطر أو العبارة لا أتركها، أكتبها وأسجّلها وأترك فراغًا للجواب. وهكذا أجمّع.

المصطلح ما وجدت من يدرّسني أبدأ في هذه الأشرطة [شرح البيقونية]، [شرح النخبة]، شرح كذا، وأسجل هذه الأسئلة، ثم بعد ذلك تستطيع أن تسافر في وقت إجازة أو نحو ذلك تجد أحد الشيوخ أو أحد المتخصصين، ما تحتاج إلى عملية عصف ذهني حتى تستخرج سؤالًا تسأل هذا الشيخ، لا؛ الدفتر موجود، تستخرج هذا الدفتر وتسأل وتكتب الجواب.

ويمكن أن تخصّص وقتًا لك مع هذا الشيخ، تقول: أريد منك بعض الوقت بعد الفجر، بعد العصر، الوقت الذي تختار، ثم تذهب إليه وتطرح عليه هذه الأسئلة، ويمكنك أن تُحضر معك الكتاب وهكذا..

يستطيع الإنسان أن يحصّل بهذه الطريقة -بإذن الله تعالى- ويسأل عمّا أشكل عليه، ولذلك نقول لبعض الشباب الذين يذهبون للكليات الشرعية وما درسوا في المعاهد العلمية، يذهبون مباشرة لكلية شرعيَّة يدرس كتاب [أوضح المسالك في النحو]، طلاب المعهد درسوا [شرح ابن عقيل] وهو كتاب تعليمي مبسَّط على ألفية ابن مالك، ودرسوا قبله في النحو، ودرسوا في العقيدة [الواسطية] و[الحموية]، ودرسوا ربما [كتاب التوحيد]، ويذهب إلى الجامعة يدرس [الطحاوية] و[التدمرية] مباشرة. في أصول الفقه ما درس شيئًا، ومباشرة يدرس [روضة الناظر]، ثم يبقى في غصّة، هذا شيء مشاهد!

هؤلاء الطلاب نبدأ نوجّههم إلى التَّرقيع؛ نقول: بسرعة حالة طوارئ، يقول: أنا لا أفهم شيئًا في النحو، نقول: [الآجرومية] سريعًا نجلس عليها أسبوعًا، هل النحو يُتعلَّم في أسبوع؟!

لذلك هذه الدورات التي نُقيمها هنا مَن لزِمها وحضرها وفهمها يستطيع أن يذهب للجامعة وهو مُستريح، أو من درس في المعاهد العلمية المتوسّط والثانوي فهي مِرقاة للجامعة؛ يستطيع أن يدرس دروس الجامعة، وهي فُصّلت تفصيلًا مناسبًا لها، لكن أكثر الناس لا يذهبون للمعاهد العلمية عندنا على الأقل أو في بلاد أخرى، ماذا يفعلون؟ نقول لهم: هيّء نفسك وادرس هذه المتون المختصرة قبل أن تذهب إلى الكلية الشرعية؛ لأنه يُفترض فيمن جاء إليها أنه درس في معاهدها وتهيَّأ لدراسة المرحلة الثالثة.

فالشباب الذين يأتون من الثانوي يَلتحِقون بكلية الشريعة مثلًا، هم في الواقع يدرسون في المرحلة النهائية، ولهذا لماذا يسمَّى التعليم الثانوي؟ هو فوق المتوسط وفوق الابتدائي، فما بعده إلا العالي يعني المستوى الأخير (المستوى الثالث).

• سادسًا: كيف نختار المعلِّم؟

إذا كانت عند الإنسان خيارات فإنه يحرص أن يتخيَّر من أهل العلم من كان متَّصفًا بالعلم والوَرَع والسَّمْت والهَدْي؛ لأنه سيتأثَّر به بلا مِرْيَة، والإنسان المُجَانِب للبِدع والأهواء ولا يُنسب لشيء من ذلك، ويعمل بعلمه، كما قال الخطيب البغدادي: "ينبغي للمتعلّم أن يقصد من الفقهاء من اشتُهر بالدِّيانة وعُرف بالسِّتر والصِّيانة".

هذا إذا تيسَّر، لكن أحيانًا لا يتيسَّر له هذا، ماذا يفعل؟ لا يجد النَّحو إلا عند إنسان لا يظهر عليه سَمْتُ التّدين؛ يدرس عنده. لا يجد الأصول إلا عند إنسان لا يظهر عليه سَمْتُ التَّديُّن، نقول: يدرس عنده. لكن لا يدرس على داعيةٍ للبدع والأهواء ولو لم يجِد غيره، لا يدرس عنده. عندك في الإنترنت، والأشرطة، تقرأ في الكتب، تسافر في طلب العلم.

لكن ينبغي أن نَعِي جيدًا هنا في الكلام على اختيار الشيوخ أن الإنسان لا يبحث عن أهل الشُّهرة، يعني يبحث عن العلماء المشهورين كما يفعل بعض طلبة العلم، ليست العِبرة بالشُّهرة وإنما العِبرة في التَّحقُّق في العلم؛ أن يكون الإنسان له بصر في العلم ومعرفة فيه، وهذا هو المطلوب، وما عدى ذلك الشهرة ليست بشرط.

فيذهب الإنسان إلى من يستفيد منه ويشرح له بطريقة واضحة. والمشاهير في الغالب هم أكثر الناس شُغلًا، قد لا يوفِّر لك من الوقت ما تحتاج إليه، لكن قد تذهب إلى إنسان خَامِلِ الذِّكر ليس بمشهور يُعطيك أوقاتًا طويلة، تستطيع أن تقرأ عليه في كل يوم، وهذا شيء مشاهد.

فلا يطلب الصِّيت وأن يكون إنسانًا مشهورًا، والعلماء لهم عبارات كثيرة في هذا أعرضتُ عنها.

قبل أن يبدأ في الدراسة على شيخ لا ينبغي أن يستعجل، ويشاور، لكن لا يشاور أقرانه، بل يشاور مَن عرفوا وخبِروا، تريد أن تدرس في كلية شرعية، تبحث عن شيخ عالم عاقل له بصر، تقول هذه الكلية ما الذي يُدرس فيها؟ ما هي الجوانب التي تحتاج إلى تكميلها في مكان آخر في المساجد من الأولى إلى الرابعة ؟

فيقول لك: هذه الكلية توفّر لك كذا وكذا وكذا، طيب فما هي الجوانب التي أحتاج إليها إن كان عندي زيادة وقت؟ الجانب الفلاني، إذًا هذا هو الذي أدرسه. وليس بأن أذهب وألتحق بالحِلق بحسب ما يُتاح ويوجد، ويكون تكرارًا لبعض الكتب؛ هذا غير صحيح.

كثير من الناس يذهب هنا وينقطع، ويذهب هناك وينقطع، حتى يُصاب بداء هو السَّآمة والملل، يكون ذوَّاقا، لا يُنهي كتابًا ولا يستمر عند شيخ، وهذا لا يَحسُن؛ وإنما ينبغي على الإنسان ألَّا يستعجل، يذهب ويحضر، يسأل، ثم يستمع، وينظر لهذا الدرس على مستوى الدرس المناسب له أم لا.

لا يأتي متحمّسًا ويتعرَّف على الشيخ ويقول: أنا أريد أن أدرس عندك، ويجلس بين يديه وفي الصف الأول، ثم بعد ثلاثة أيام لا يُرى! هذا غير لائق.

وإنما يأتي في طرف الحلقة ويستمع، ويمكن أيضًا للطالب الذي يريد الدراسة في كلية شرعية، لا يعرف أي قسم يدخل في كلية الحديث أو كلية القرآن أو كلية الشريعة، ممكن للإنسان أن يأتي

ويحضر بعض المحاضرات هنا وبعض المحاضرات هناك، ويسأل الشيوخ ومن تخرَّجوا أيضًا من أهل العلم من هذه الكلية أو تلك، فلا يستعجل.

فإذا ظفر بالشيخ فهو يُلازمه ولا ينقطع حتى يُنهي ذلك الفن أو الكتاب عليه.

ويتلطَّف به، أحيانًا لا يُوفَّق الطالب إلى طريقة، فيَخْتَزِن العالم عنه عِلمه أو كثيرًا من علمه؛ كان أبو سلمة يُماري ابن عباس فحُرِم بذلك علمًا كثيرًا، يقول: "لو رَفَقْتُ به لاستخرجت منه علمًا كثيرًا"، وابن جُريج يقول: "لم أستخرج الذي استخرجتُ من عطاء إلا بالرفق به". وشُعبة يقول: "كل من سمعت منه حديثًا فأنا له عبد". وميمون بن مهران يقول: "لا تُماري من هو أعلم منك، فإذا فعلت ذلك خَزَن عنك علمه، ولم يضرّه ما قلتَ شيئًا".

لذلك بعض الناس لربما يَشْتَطُّ ويتحمَّس ويجادل في كل قضية تَرِد في الدرس، في الأمثلة يجادل عليها، أحيانًا أشياء تستطيع أن تُفوِّتها، غير مقتنع فيها فوِّتها، عَرَضًا جاءت، مثال من الأمثلة، يقول لك: لا؛ نريد أن نُوقِفه على ما نراه الحق فيها!

فهذا يسبِّب ضياع وفوات كثير من العلم.

• سابعًا: كيف يَثبُت العلم؟

قال بعضهم: ما السببّ الذي يُنال به العلم؟ فقال: "بالحرص عليه يُتَّبع، وبالحب له يُستمع، وبالفراغ له يجتمع، علّم علمك من يجهل، وتعلَّم ممن يعلم؛ فإنك إن فعلت ذلك عَلِمت ما جهلت، وحفِظت ما علِمت".

يأتي طالب العلم ويحضر الدرس، وبالطريقة التي ذكرتها سابقًا، وهذه جرَّبها علماء كابن بدران -رحمه الله-، ولهذا يقول: "ما احتجتُ أكثر من خمس سنوات في الجلوس بين يدي الشيوخ"، يدرس هذا المتن ويراجع ويحفظ، ثم بعد ذلك يأتي للدرس الآخر وقد ضبط الدرس السابق، ولا ينسى ما درسه ويُغفل ذلك؛ فإن هذا ليس من شأن طلاب العلم.

هناك علوم تحتاج إلى **تمارين** مثل النحو، يحتاج إلى تدريب، يحتاج إلى سؤال وجواب ويحتاج إلى تطبيقات، ولهذا يقول ابن عاشور -رحمه الله- في أسباب ضعف التحصيل، يذكر من ذلك: إهمال التَّمرين والعمل بالمعلومات كما هو الغاية من كل علم. يقول: "نجد علومًا تُدرس، وكتبًا تُختم، ولا نرى فِيمَن نُحادث أو نُجالس فصيح لسان أو بليغ بيان!"؛ يقول: يقرأ الناس علم البلاغة وعلم الأصول وعلم النحو فلا نرى من يجتنب اللَّحْنَ في قوله ودَرْسِه، ولا من يشعُر بالمقاصد البلاغية فينطِق بها أو يفهمها، ولا من يرجّح في مسائل الخلاف؛ وما سبب ذلك إلا أنهم حصَّلوا ألفاظًا مُتحَجِّرة اصطلحوا أن يُسمُّوها عِلمًا، وهم يدرُسونها وما يشعرون بعنوانها وغايتها والقصد منها.

يقول: وإذا وُجدت تمرينات فهي تمرينات سطحية؛ فالنحو مثلًا يحتاج إلى تطبيقات، نص الدرس يكون في التطبيقات، تجد الإنسان يدرس الكتب ويحفظ المتون ومع ذلك يلحن ولا يحسن النحو.

كما أنه يحتاج إلى المذاكرة في كل العلوم، **المذاكرة مع الأقران،** مع الطلاب، يطرحون المسائل ويتذاكرون ويتناقشون؛ المسألة الفلانية ما الدليل عليها؟ ما درجة هذا الحديث مثلًا؟ ماذا يرد عليه؟ بماذا احتجَّ المخالف؟

الزُّهري –رحمه الله– كان يرجع إلى منزله وقد سمع حديثًا كثيرًا فيُعيده على جارية له من أوَّله إلى آخره كما سمعه، ويقول لها: "إنما أردتُ أن أحفظه"، إعادة الدرس؛ يمكن للإنسان أن يُذاكر مع زوجته، ويُعيد ذلك على أهل بيته، بطريقة مبسَّطة، يمكن أن يرجع إلى مسجده فيطرح عليهم المسائل الفقهية التي درسها أو في العقيدة أو نحو ذلك، بطريقة مبسَّطة، فهذا أدعى إلى ثُبوت العلم.

وهذا إسماعيل بن رجا كان يجمع صِبيان الكُتَّاب فيحدّثهم لئلَّا ينسى حديثه. يقول إبراهيم: "إذا سمعتَ حديثًا فحدِّث به حين تسمعه ولو أن تُحدّث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتاب في صدرك". وهكذا ابن عبد البَرّ يقول: "أما الفقه فلا يُوصَل إليه ولا يُنال أبدًا دون تناظر فيه وتفهُّم له". ويقول سعيد بن عبد العزيز بأن عطاء الخرساني كان إذا لم يجد أحدًا أتى المساكين فحدَّثهم، يريد بذلك الحفظ. وذكر الزرنوجي في كتاب له في التعلم والتعليم بأن فائدة المطارحة أو المناظرة أقوى من فائدة التكرار؛ لأن فيها تكرارًا وزيادة، وقد قيل: "مُطَارَحَة ساعة خيرٌ من تكرار شهر".

وهكذا يوصي أهل العلم كما قال ابن جماعة وغيره، بتذاكُر طلاب العلم ما درسوه في مجلس العلم.

لكن للأسف اليوم يذهب كل إنسان في سبيله، لكن يمكن للإنسان ولو بالهاتف أن يحدّد بعض الوقت مع أحد أصحابه، يكون من النَّابهين من الجادّين في طلب العلم ويُذاكر معه.

وكذلك أيضًا العمل بالعلم يُثبّته.

وهكذا أيضًا **التكرار**، وسبق ذكرنا لكم عن بعض أهل العلم مثل الكافييجي، لماذا قيل له الكافييجي؟ لكثرة اشتغاله بـ[الكافية] لابن الحاجب، فكانوا لربما درّسوا الكتاب عشرات المرات بل مئات المرات، فيثبُت عندهم.

أنا أقول لإخواني من المعلمين الآن اعتبروا بأنفسكم؛ الذي درّس التجويد المستوى الفلاني من التجويد مثلًا المستوى الأول أو نحو ذلك، أو درّس الفقه لأولى ثانوي أو ثاني ثانوي، أو كتاب [التوحيد] ونحو هذا، درّسه سبع سنوات، ماذا يجد؟ يجد أنه قد تشرَّبه تشرُّبًا تامًا، ولا يحتاج أن يحضّر، هو حافظ لكثرة التكرار.

الشيخ عبد الله الجبرين –حفظه الله– أحد المرات لما جاء هنا في درس الفقه قبل أن يجلس وهو واقف، قال: ما هو الباب؟ قلت له: النكاح، جلس، أتى بأبيات في أسماء النكاح ومعنى كل اسم، وجاء بأشياء لو حضّر الإنسان أيامًا لربما لم يأتِ بها. لماذا كان بهذه المثابة؟ هو رجل جلس عقودًا متطاولة وهو يكرّر دراسته وتعليمه مرَّة بعد مرة حتى تشرَّب هذه الأشياء فلا يحتاج إلى مزيد مذاكرة فيها.

اعتَبِر هذا فيما تدرُسه أنت في المدرسة وقِس على ذلك سائر العلوم.

المشكلة أننا نقرأ مرة وخلاص هي النهاية! مثلًا هذا الكأس من الماء لو تركناه في الشمس وعوامل التَّعرية من الهواء وغيره وجِئنا بعد سنة كاملة، هل سنجد فيه ماء؟ الجواب لا، أين يذهب الماء؟ يتبخَّر. الآن لو تركناه على هذه الطاولة وجِئنا في الغد هل سنجد الماء؟ لا سيتبخر. فنحن عوامل التَّعرية عندنا كثيرة من الأشغال والهموم الطارئة والمزعجات وإلى غير ذلك، وطبيعة عقل الإنسان، فيتبخَّر العلم.

فإذا كان هذا الكأس مثقوبًا فإنه سينتهي ويتلاشى ما فيه لا محالة، فإذا كُنت تصُبّ فيه وتكاثر هذا الماء فإنك إن صببت فيه أكثر مما ينقص لا يخرج منه بل سيزيد، وإذا كنت تضع فيه بقدر ما ينقص وبقدر ما يخرج منه فسيبقى متماسكًا، وإن كنت تضع أقل فإنه سيكون في تناقص، وإن كنت لا تعوّضه شيئًا فإنه سيجف.

فلذلك تجد بعض الناس ربما يَلِي ألوان الولايات الشرعية، ويحصّل رُتبًا في رئاسات وأعمال ووظائف، تستغرب كيف حصَّلها؟! وإذا تكَّلم كأنه عاميّ، هذا كان الأول على دفعته لربما في أيام الدراسة، كان متفوقًا لكن شُغل بأعمال من القضاء وغيره، شغل عن العلم فتلاشى عنده وصار بهذه المثابة، وإلا كان من الأذكياء النابغين، وهو شيء نشاهده.

والشاهد أن هذه الأمور لا بد مِن مراعاتها، وقد قيل:

إذا لم يُذاكِر ذُو العُلومِ بِعِلمهِ * * * ولم يَسْتَفِدْ عِلمًا نَسِي مَا تَعَلَّمَا

فَكَمْ جَامِعٍ للكُتْبِ في كُلِّ مَذْهَبٍ * * * يَزِيدُ مع الأيَّام في جَمْعِهِ عَمَى!

والصُّحبة دوائر كما يقول ابن الجوزي؛ دوائر ثلاث فاخْتَر من الزُّملاء من يكون عالي الهمة صاحب دِيَانة، صاحب ذكاء، صاحب نَزَاهة وخُلُق حَسَن. فهذا كما قيل:

لا تَصْحَبِ الكَسْلانَ في حَالَاتِهِ * * * كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ؟!

عَدْوَى البَلِيْدِ إلى الجَلِيْدِ سَرِيْعَةٌ * * * كالْجَمْرِ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخمُدُ!

وهذا شيء مُشَاهَد؛ إنسانٌ صَاحَبَ أُناسًا مِن الكُسَالى مِن البَطَّالين فيُثبّطونه، ويستهزئون به، وتصير الصناعة هي الأكل والشرب والنوم والتَّجوُّل، فيُشغِلونه عن العلم.

وهكذا يحتاج الإنسان إلى أن **يبذُل ما عنده مِن جُهْد**، كما قال يحيى بن أبي كثير: "لا يُستطاع العِلْم براحة الجِسْم".

تُرِيْدِينَ إِدْرَاكَ المعالي رَخِيْصَةً * * * ولا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أنْتَ آكِلُهُ * * * لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرا

وقد قيل: "من كانت بدايته مُحرِقة كانت نهايته مُشرِقة".

ويحتاج إلى **متابعة**، لا يحصل فُتُور وانقطاع له، هذا الفتور والانقطاع كما يذكر أهل العلم يُسبِّب له نِسيان ما تعلَّمه، ولهذا نقول أنَّ مِن آفَاتِ الدُّروس المُتقَطِّعة التي تكون يوم في الأسبوع وتنقطع في الإجازات، والطلاب قد نَسُوا وضَعُفَت هِمَمُهم وتلاشى ما حصّلوه، إلا ما شاء الله.

وهكذا أيضًا **بذلُ العلم للناس**؛ ولذلك تجد الآن من هم أعلم أهل الزمان في عصرنا هذا ممن نعرف مثلًا في بلادنا؟ الشيخ العثيمين والشيخ بن باز -رحمهما الله-، وهم أكثر الناس بذلًا للعلم، تجِد للواحد منهم دروسًا كثيرة في اليوم الواحد.

يقول الشيخ محمد الموسى عن الشيخ بن باز، وهو مدير مكتبه في بيته، يقول: "كنت أقول له يا شيخ لم تُعطني وقتًا لأقرأ عليك في كتاب؟ قال: اقرأ عليَّ وأنا اتوضأ"، ما عنده أي وقت! كل وقت يُقرأ عليه فيه، "اقرأ عليَّ وأنا أتوضأ" لاحظتم!

ونحن كم عندنا من أوقات؟! كم ننام؟ كم نأكل؟! هؤلاء الذين يبذلون العلم يُبارك لهم في ذلك، ويكونون هم الأكثر علمًا، تصوَّر شخصًا مثل الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- حينما مات كم بلغ من العمر؟ جاوز التسعين، افترض أنه ما بدأ يطلب العلم إلا بعد العشرين، ألا يكفي أن يُقرأ على الإنسان في مدة لربما تقارب السبعين سنة، يقرأ عليه في اليوم لربما أكثر من خمسة دروس، في الجامعة الإسلامية حينما كان مديرًا لها كان إذا غاب أحد من الشيوخ أو سافر أو نحو ذلك يأتي الشيخ ويسُدُّ المكان ويدرّسهم وهو الرئيس، فأعمارهم في العلم، فهم أكثر الناس بذلًا ولذلك صاروا أكثر الناس علمًا.

كما يقول ابن القيم -رحمه الله-: "العالم كلَّما بَذَل عِلمه للناس وأنفق منه تفجَّرت ينابيعه؛ فازداد كثرة وقوة وظهورًا، فيَكْتَسِبُ بتعليمه حِفظ ما عَلِمه، ويحصُل له به عِلْمُ ما لم يكن عنده، وربما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة ولا خارجة مِن حَيِّز الإشكال؛ فإذا تكلَّم بها وعلَّمها اتَّضحت له وأَضَاءَت وانْفَتَحت منها علومٌ أخرى"، وهو شيء مُشاهَد.

مع **مراعاة الأمور التي تُقوّي الذاكرة**، وتُقويّ الحفظ، العلماء يتكلَّمون على أكل الزبيب، وأيضًا على مَضْغ اللِّبان والمستكة، وهكذا أيضًا شرب العسل، مع اجتناب الأشياء التي تُسبِّب ضعف الذاكرة، فكانوا يرون أن أكل التفاح الحامض والباقِلّاء وشرب الخل وكثره اللبن أو اللبن الحامض بالذات كل هذه الأشياء تسبب ضعف الحافظة.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– يقول ابنه عبد الله: "كان إذا رأى معنا اللبن الحامض انتزعه بشدة وغضب"؛ لأن ذلك يسبب ضعف الذاكرة أو ضعف الحفظ.

وهكذا أيضًا أن **يصبر** الإنسان على الجلوس في مجالس العلم، ولا يكون شيء إلا بالصبر.

▪ صوارف وموانع العلم

ويَتَوقَّى القَوَاطِع والمَوَانع والصَّوارف، هذه القواطع والصوارف كثيرة جدًا، أحيانًا يكون طالب العلم إنسانًا له رغبة في العلم الشرعي، في مرحلة المتوسط والثانوي أقبل على العلم وعلى الدروس وكذا، إذا أراد أن يسجل في الجامعة، قال: أريد أن أذهب للكلية الشرعية، قال أهله: هيهات!، قال: لماذا؟ قالوا: تريد كلية شرعية، احضر درسًا في المسجد! وهم لا يفهمون العلم الشرعي ولا يعرفون قَدْرَه، فيَرَوْنَ أنه يدرس في كلية في علوم طبيعية ونحو ذلك من أجل الوظائف ونحو ذلك، و(**لن تموت نفسٌ قبل أن تستوفي رزقها وأجلها**)..

وأين هذا الذي يتخرَّج في علوم طبيعية وغيرها يُحَصِّل وظيفة بخمسة آلاف ريال من عالمٍ يكون شمسًا على مرِّ القُرون؟!

تصوّر لو كان الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله- مدرّسًا أو موظفًا في شركة، أو تخرَّج في كلية بهذه التخصصات ولم يشتغل بالعلم الشرعي، وقال له أهله: لا، ادرس تخصصًا آخر من هذه العلوم الدنيوية والمادية لكي تعمل وتحصل على وظيفة في شركة، يكون راتبك ثمانية آلاف أو عشرة آلاف.. أين هذا من هذا؟!

نحن لا نتكلم عن أناس يتخرَّجون من كليات شرعية عبارة عن موظفين وليس لهم من العلم شيء، لا نتحدث عن هذا؛ بل نتحدث عن إنسان يكون عالمًا، ولهذا حينما نطرح بعض البرامج في بعض البلاد يقول بعض الإخوان: هؤلاء لازم يدرسون في دراسة نظامية لأجل الوظائف بعد ذلك، نقول: هذا إذا تَخَرَّج عالمًا فالكل يريده، هو عُملة نادرة، أَنْدَرُ شيء في العَالَم هو العلماء بالشريعة.

الآن كفالات الدُعاة كثيرة جدًا، يعجز الناس عن كفالة عالم!، فالمقصود أنه (**لن تموت نفسٌ قبل أن تستوفي رزقها وأجلها**)، وإذا تأمّلت في أحوال الخَلْق تستغرب بعض الناس من أين لهم هذه الأموال؟! ولا ترى إلا إنسانًا متقاعدًا من وظيفة بسيطة وعنده أموال وملايين وأراضٍ وأشياء، من أين جاءت؟ الله هو الرزاق وهو الذي أعطاه.

وتجد آخرين ذكاء ودراسة وتخصصات لرُبَّما نادرة في علوم مادية ونحو ذلك، ومع ذلك تجد عليه ديونًا وما حصَّل شيئًا من الدنيا؛ فالله هو الرزاق.

فالعلم أشرفُ وأَجلُّ مِن أن يُلتفت عنه، الناس ينظرون إلى الناحية المادية ونحن نقول له: لا؛ اصعد إلى أعلى، فنحن نتكلم عن شمس تضيء للناس الطريق؛ شيخ الإسلام، ابن القيم،

الشيخ محمد بن إبراهيم، الشيخ ابن العثيمين، الشيخ الألباني، الشاطبي..، علماء لا زالت تتردَّد أسماؤهم ويترحَّم الناس عليهم. فكثير من الناس لا يتصوَّر هذا ولا يَعِي حقيقة العلوم الشرعية، فيُلزِم ولده، يقول له: لا، تذهب وتتخصَّص في التَّخصُّص الفلاني لأجل أن تشتغل في الشركة الفلانية، فيكون قد قضى عليه!

حتى لو حاول أن يسبح في خلاف الأمواج، فيحاول ويحاول ويحاول، ثم بعد ذلك ينقطع وينتهي، وهذا أمر نشاهده ويتكرَّر..

هكذا **قصور التصوّر** عند بعض الطلاب كما ذكرت لكم في ثنايا الحديث، يتصوّر العلم الشرعي هو حفظ المذكرات، فلماذا أجلس أربعة سنوات؟!

جاء مرّة بعض الطلاب من اليابان في الجامعة الإسلامية ودرسوا قليلًا، ثم بدأوا يحسبون ويعدُّون بالأرقام، قالوا: أربعة سنوات ممكن في اليابان نحقّق كذا وكذا من المكاسب، فخرجوا ورجعوا. هل عرفوا قيمة العلم الشرعي؟ ماذا حصّلوا الآن في اليابان؟!

وهكذا أيضًا أحيانًا يكون الإنسان **رغبته ضعيفة في العلم الشرعي**، فسُرعان ما يفتُر وينقطع.

وهكذا أيضًا **تحوّل النيّة**، وكثير من الناس قد يبدأ برغبة فإذا جاء ودرس العلوم الشرعية في كلية من الكليات تغيّرت نيّته؛ ولهذا يقول ابن عاشور: من المعوِّقات، يذكر: تفكير التلاميذ منذ الابتداءِ لاستعجال تحصيل الشهادة من غير تفكير في الأهم من ذلك وهو الكمال العلمي.

والشاهد أنه تكلم على هذه القضية وعابَها، وهذا شيء نشاهده؛ تجد الطالب يأتي متحمسًا ثم بعد ذلك يشغل الشيوخ، هذا محذوف؟ احذف هذا، نريد منكم مذكرة يا شيخ. صارت القضية مذكرات وتبحث عن المحذوف، أنت راغب في العلوم الشرعية! ما الذي حصل؟ نيته تغيَّرت!

تجد الواحد ينتسِب أحيانًا، يقول: أنا أريد أن أدرس العلوم الشرعية، ما لك في الصداع والدراسة بعد هذا العمر؟ يقول: أريد أن أدرس العلوم الشرعية، فإذا درس أشغلهم، يبحث واتصالات، أين المحذوف؟ نريد مذكرة نصورها، أين الرغبة في العلم الشرعي؟ ينسى ذلك!

وهذا يقع فيه الكثير من الدَّاخلين في الكليات الشرعية، يأتي وهو متحمّس ثم بعد ذلك إما بسبب الزملاء الذين يراهم أو غير ذلك فتضعف همته، ويزهد بما يدرسه، ويصير همُّه فقط التخرج والنجاح، أو تحصيل الدرجات العالية والتفوق دون التحصيل العلمي؛ ولهذا تجد هذا الإنسان لا هِمَّة له في العلم والبحث والاطّلاع والقراءة وحضور مجالس العلم إطلاقًا، ولكن قد تجده الأول لأنه يحفظ المذكرات، همُّه أن يحفظ في هذه الدراسة ويتفوّق من أجل أن يكون مُعيدًا ثم محاضرًا، ثم بعد ذلك يترقَّى بعد الدكتوراة إلى أستاذ مشارك ثم أستاذ، وهكذا في قضايا وظيفية بحتة، وإذا نظرت إلى حصيلته العلمية تجد أنها ضعيفة!

وهذه مشكلة فينبغي عن الإنسان أن يحذر من هذا، وإذا وُجدت النية عند المعلم وعند التلميذ -بإذن الله عز وجل- فإنه يحصّل من العلم إذا كانت له فيه رغبة وعنده أهليَّة.

ولكن للأسف يأتي الشيخ ويرى أن هذا عِبء ثقيل عليه، وأنه قد ملَّ من التعليم ومن رؤية الطلاب، ويعُدُّ الأيام متى تنتهي، ومتى تأتي الإجازات، والطلاب أيضًا في غاية التَّثاقُل والضَّجر، ثم إذا كانت ليلة الذهاب إلى المدارس يضيق صدره بالعلم والدراسة، فيتبرَّم بذلك ويفرح بغياب الشيخ!

والعجيب أنك تجد بعض الشباب يذهب إلى كلية شرعية ويزهد بهذه الأشياء؛ فيغيب، ويتآمر مع زملائه بالغياب الجماعي، ويأتي الشيخ فلا يجد أحدًا، ويفرحون إذا غاب الشيخ، وتجد أحدهم يذهب مُلِحًّا على بعض الشيوخ، أو يسافر من أجل حضور درس، وذلك إنما يعطيه هذا الإنسان الذي أُحرج من وقته شيئًا يسيرًا ويأتي بلا تحضير، وهذا في غاية الحماس!

طيب هذا الدرس الذي في الكلية الآن، الشيخ هذا قد درَّسه سنوات طويلة وخبِره وحَبَّره مِرارًا، فهو مُتقِنٌ له، لماذا لا تستفيد منه، وتحرص على ذاك الدرس الآخر؟!

وهكذا أيضًا **قلة الصبر**، إضافة إلى ما يحصل من التَّثْبِيط أحيانًا؛ إما من زملائه أو ممن يحتفّ به أو غير ذلك؛ يقولون: العلم لا يصلح لك، والدروس لا تصلح لك، والدورات هذه ليست لك، أو الدورات هذه غير ناجحة، والذي يقول هذا الكلام ما حضر قط في يوم واحد حتى يحكم وليس أهلًا لأن يحكم، ويوجد من يقول هذا الكلام ويُعوِّق عن حضور مجالس العلم، فينبغي ألا نستجيب.

كذلك أيضًا **ضعف الهمة عند الإنسان**؛ أحيانًا الإنسان يمر بحالات من الارتفاع والهبوط، فقد يكون الهبوط هو الهبوط، لذلك يحتاج الإنسان لفقه التعامل مع النفس، سواء الضعف في

العبادات أو الضعف في الهمة في العلم، فالضعف في العبادات له طريقة في العلاج والارتقاء بالنفس شيئًا فشيئًا، والضعف في العلم أيضًا له طريقة؛ الإنسان أحيانًا يمرض أو يسافر أو ينقطع أو غير ذلك، فما تعود نفسه بتلك القوة في الاطِّلاع والبحث وقضاء الساعات والصبر الطويل ونحو ذلك، فيحتاج إلى شيء من التلطُّف، فيقرأ الكتب التي يميل إليها شيئًا فشيئًا، والكتب الخفيفة حتى يأنس، فيقرأ في اليوم ساعة ثم ساعتين ثم ثلاثة حتى يرجع لحاله السابقة.

وكثير من الناس **يتعلَّق بالأماني الفارغة**، أو يكون عنده عاطفة التعلُّم، في محبة العلم، لكن ليس له برامج قوية وجادة وليس له همة عالية، يقول الزمخشري:

يا مَنْ يُحَاوِل بالأماني رُتْبَتِي * * * كم بَينَ مُنخفضٍ وآخَرَ رَاقِي؟

أَأَبِيْتُ لَيْلِي سَاهِرًا وَتُضِيْعُهُ نَوْمًا * * * وتَأْمَلُ بعد ذَاكَ لَحَاقِي؟!

وهكذا على كل حال **لربما يشعر الإنسان بالنقص**، أو **يُشعَر هو بذلك**، يقول: أنا لست بأهل، أو يتذكَّر ماضيه السيء أحيانًا ويقول: أنا لست بأهل للجلوس في هذا المجالس الشريفة.

وهكذا **الاشتغال بالدنيا والحرص عليها**، لربما يريد أن يكون تاجرًا بزعمه وطالبًا للعلم، يقول: "ابن المبارك كان عالما وتاجرًا"!، لكن أكثر العلماء ما كانوا كذلك، فأحيانًا الإنسان يتعلَّق بأمور من شأنها أن تُقعِده وأن تكسر نفسه وتقطع عليه الطريق بعد البداية.

وهكذا **الذنوب والمعاصي** أيها الأحبة، فإن لها شأنًا عظيمًا في ضعف التحصيل وكما تعرفون:

شكوتُ إلى وَكيعٍ سُوءَ حِفظي * * * فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأنَّ العلم نُورٌ * * * ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

وأيضًا الأمور التي تسبب له **الارتخاء والتثاقل والكسل**، كثرة الأكل وكثره النوم والفضول من هذه الأشياء، الشافعي -رحمه الله- يقول: "ما شَبِعتُ منذ ست عشرة سنة"، فإذا أكثر الإنسان من الأكل فإن ذلك يُورث فتور الحواس.

وابن جماعة يقول: "مَن رَامَ الفلاح في العلم وتحصيل البُغية منه مع كثرة الأكل والشرب والنوم فقد رام مستحيلًا في العادة!".

وابن عاشور له كلام في هذه القضية في كتاب (أليس الصبح بقريب)، يرى أن طلاب العلم يحتاج أن يكون لهم شيء من الرياضة والنشاط والحركة، ويقول: من عادتهم أنهم يسيرون على رسوم معيَّنة، وفي غاية التثاقل، وهذا يسبب ضعفًا في البدن يؤثر على الأذهان.

• ثامنًا: أيها المعلم لا تبتئس!

أحيانًا الإنسان يكون في حال من العلم والبذل لكن لا يجد طلابًا، فلربما يتثبَّط وتنكسر نفسه، فينبغي ألَّا يؤثّر فيه ذلك.

ابن مالك –رحمه الله– الإمام في النحو المعروف كان يقف على بابه ويقول: "من يريد النحو؟" ولا يأتيه أحد! صاحب الألفيَّة، مَن منَّا لا يعرف ابن مالك؟

وهكذا الإمام مالك –رحمه الله– يقول: "كنت آتي نافعًا وكان يجلس بعد الصبح في المسجد فلا يكاد يأتيه أحد"، والذهبي –رحمه الله– ذكر في ترجمه عطاء بن أبي رباح أنَّ أحد معاصريه قال: "رأيتُ عطاء وهو أرضى أهل الأرض عند الناس وليس يجلس معه إلا تسعة أو ثمانية"، لا يجلس عنده آلاف!

بعض طلاب العلم اذا جلس عنده تسعة أو ثمانية أو ألقى محاضرة حضرها عشرة أو نحو ذلك أو الدرس ما يحضره إلا عدد قليل انقطع وغضب، ولربما تحامل عليهم، مثل هذا لا يليق؛ **من كانت له نيَّة فإنه لا يُبالي..**

إذا كثُر الناس شاع غلطك، وكان هذا أيضًا أصعب في ضبط النية والقصد، **وما صدق الله عبدٌ إلا سَرَّه ألَّا يُشْعَرَ بمكانه..**

الإنسان يبذل العلم ويصحّح نيته دائمًا، يراقب قلبه وحركات النَّفْس، ولا يبالي بعد ذلك الناس يُقبِلون على درسه أو لا يُقبِلون، هذا شيء ليس إليه.

الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- قال له أحد الشيوخ حينما كان في المدينة في الجامعة الإسلامية يدّرس في المسجد النبوي، قال له: "يا شيخ ما يحضر درسك إلا عدد قليل، وفلان لا يصل إلى قريب منك في العلم ومع ذلك يحضر له المئات!، قال: كم يحضر لي؟ قال: نحو عشرة، فأطرق وسكت وقال: "بركة"، الشيخ عبد العزيز رحمه الله- بقي سنوات طويلة لا يحضر له إلا هذا العدد.

الشيخ العثيمين في أول أمره ما كان يحضر له إلا عدد قليل، الشيخ ابن جبرين كان يحضر له طالب واحد لسنوات وليس من أهل البلد، طالب واحد! فالإنسان لماذا يضجر؟!

• تاسعًا: أنت أيها المتعلِّم لا تبتئِس!

هذا رفع للمعنويات، لا تبتئس، تأمَّل خيرًا..

هذا الفقيه سُليم الرازي ممن طلب العلم على كِبر السن، فقد طلبه بعد سن الأربعين، ويُحفظ مثل هذا العدد من العلماء أيضًا مثل صالح بن كيسان والعز بن عبد السلام، وعلي بن حمزة الكِسائي النَّحوي، الإمام في النحو ما طلبه إلا بعد الأربعين!

وهذا عبد الرحمن بن النَّفيس أحد الحنابلة كان في أول أمره مُغنّيًا وكان ذا صوت حسن، ثم تاب من هذا المنكر وطلب العلم وحفظ كتاب [الخِرق].

وهكذا أيضًا عبد الله بن أبي الحسن الجُبَّائي كان نصرانيًا وكان أهله نصارى، وأبوه من علماء النصارى، وكانت النصارى تغلو فيه، ولكنه أسلم وحفظ القرآن وطلب العلم، قال بعض من رآه: "كانت له مهابة وجلالة في بغداد".

وهكذا نصير الدين أحمد بن عبد السلام كان قاطع طريق، قال عن نفسه أنه كان ذات يوم في أثناء قطعه للطريق مضَّجعًا تحت نخلة أو في حائط نخل، فرأى عصفورًا يتنقَّل بين نخلتين بانتظام، فعَجِب وصعد إلى إحدى النَّخلتين فرأى حيَّة عمياء والعصفور يُلقي لها الطعام! فتعجَّب من ذلك وتاب من ذنبه وطلب العلم وسمع الكثير، وسمع منه خلق. وهذا نقوله أيضًا للذين يتركون العلوم الشرعية من أجل الوظائف..

وهذا سيبويه كان يَسْتَملي الحديث على حمَّاد بن سلمة، وبينما هو يستملي قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس من أصحابي إلا من لو شِئتُ لأخذت عليه ليس أبا الدرداء)

والحديث لا يثبت، فقال سيبويه: "ليس أبو الدرداء"، وظنه اسم ليس، فقال حماد: "لَحَنْتَ يا سيبأويه، ليس هذا حيث ذهبت؛ وإنما ليس ها هنا استثناء"، فقال: "لا جَرَم، سأطلُب علمًا لا تُلَحِّنني فيه"، فلَزِمِ الخليل فَبَرَع!

وخبر آخر يرويه حماد بن سلمة أنه جاء إليه سيبويه مع قوم يكتبون شيئًا من الحديث، قال حماد: فكان في ما أمليتُ ذِكر الصَّفا، فقُلت: "صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا"، وكان هو الذي يستملي فقال: "الصفاء بالهمزة"، فقلت: "يا فارسي لا تقُل الصفاء؛ لأن الصفا مقصور"، فلما فرغ من مجلسه كسر القلم وقال: "لا أكتب شيئًا حتى أُحكِم العربية"!

ومن المعلوم أن سيبويه مات وهو صغير، قيل عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل نحو الأربعين.

وهكذا أيضًا ما جاء عن عثمان بن جِنّي حينما كان يقرأ النحو بجامع الموصل، فمرَّ به أبو علي الفارسي فسأله عن مسألة في التَّصريف، فقصَّر فيها، فقال له أبو علي: "زبَّبْتَ قبل أن تُحصرِم"، فلَزِمَه من يومئذ مدة أربعين سنة! واعتنى بالتصريف إلى أن تصدَّر مكان الفارسي فيه ببغداد.

وهذا الإمام الشافعي -رحمه الله- يقول: "كنتُ امرِئًا أكتب الشعر فآتي البوادي فأسمع منهم، فقدِمتُ مكة فخرجت وأنا أتمثَّل بشعر لِلَبِيد وأضرب وحشيَّ قدميَّ بالسَّوْط، فضربني رجل من ورائي من الحَجَبة، فقال: رجل من قريش ثم ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون مُعلّمًا؟

ما الشِّعرُ إذا استحكمتَ فيه * * * فعُدَّتَ معلمًا؟ تفقَّه يُعْلِكَ الله

فنفعني الله بكلامه؛ فكتبت ما شاء الله من ابن عُيينة". إلى أن قال: "ثم قدِمت على مالك، فلما عرضتُ عليه إلى كتاب السِّير قال لي: تفقَّه تعلو يا ابن أخي".

وهذا الشيخ الحافظ محدّث الكوفة أبو جعفر محمد بن عبد الله، الملقب بُمطيَّن، يقول جعفر الخُلْدي: "قلت لمطيَّن لمَ لُقِّبت بهذا؟ قال: كنتُ صبيًا ألعبُ مع الصبيان وكنت أطولهم فنسبح ونخوض، فيُطيِّنون ظهري، فبُصَر بي يومًا أبو نُعيم فقال لي: يا مطيَّن لم لا تحضر مجلس العلم؟ فلما طلبتُ الحديث مات أبو نعيم، وكتبت عن أكثر من خمسمائة شيخ".

وهذا ابن حزم يذكر سبب تعلّمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قم فصلِّ تحية المسجد، وكان قد بلغ ستًا وعشرين سنة، قال: فقُمتُ وركعت. فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة دخلتُ المسجد فبادرتُ بالركوع، فقيل لي: اجلس، اجلس، ليس ذا وقت صلاة! وكان بعد صلاة العصر.

قال: فانصرفتُ وقد حزنت، وقلتُ للأستاذ الذي ربَّاني: دُلَّني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دَحُّون. قال: فقصدته وأعلَمْتُه بما جرى، فدَّلني على [موطأ مالك]، فبدأتُ به عليه، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحوًا من ثلاث أعوام، وبدأتُ بالمناظرة.

وهذا الشيخ خالد الأزهري الملقب بالوقَّاد وهو من كبار النُحاة، اشتغل بالعلم على كِبر، قيل كان عمره ستًا وثلاثين سنة، وكان يُوقد السُّرج في الأزهر، فسقطت منه يومًا فتيلة على كُرَّاس أحد الطلبة فشتمه وعيَّره بالجهل، فترك الوِقَادة وانكبَّ على الطلب، وبَرَع وأشغل الناس، وصنَّف شرحًا حافلًا على [التوضيح] ما صُنِّف مثله، وصنَّف كتابًا في إعراب [ألفية ابن

مالك]، ووضع شرحًا على [الآجرومية]، وآخر على [قواعد الإعراب] لابن هشام، وآخر على [الجزريَّة] في التجويد، وله [المقدمة الأزهرية] مع شرحها، وكثُر النفع بالتصانيف حتى صار شيخًا للأزهر بعد أن كان عاملًا فيه.

كم بلغتم من العمر أنتم؟ فالطريق مفتوح، تستطيع أن تكون عالمًا، والله عز وجل أعطاك وأَوْلَاك، وأنت لا شك أنك في لحظتك أعلم من كل عالم حينما كان {**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**}، فالصبر والمواصلة..

قد يكون الإنسان ليس بذلك الحاذق أو كثير الذكاء، ولكنه مع الدَّوام والتكرار، يُحَصِّل ما لا يحصِّله الأذكياء.

• عاشرًا: نظرة في الواقع

الآن إذا نظرنا إلى المراحل التعليمية عندنا: ابتدائي ومعهد أو ابتدائي متوسط، ثانوي، الجامعة، نجد الناس يحصّلون فيها، أنا أقول لكم أنَّ أحدًا درس في المعهد العلمي المتوسط، والثانوي، ثم درس في كلية الشريعة مثلًا أو في أصول الدين وضبط ما درسه فإنَّه يكون عالمًا، لو ضبطه فعلًا وأتقنه يكون عالمًا. لكن الواقع هو ما ذكرته في ثنايا الكلام!

كثيرًا ما نفكر في برامج علمية، ولربما كتبنا أشياء، ثم إذا نظر الإنسان وتفكَّر فيما يوجد من معاهد وكليات، وجد أن هذه وضعها علماء واختاروا لها المناهج، واختاروا لها الشيوخ، وهَيَّأوا للطلاب ما يحتاجون إليه، يعني يجلس الطالب ما عليه إلا أن يجلس في مكان واحد والشيوخ يأتون إليه، خمسة يتعاقبون في أول النهار، وكل شيء مهيًّأ من مسكن ومكافأة ونحو ذلك، فبماذا يتعلَّل؟!

لكن للأسف كما قلت النية أو ضعف الهمة هي التي تجعل الإنسان لا ينتفع، إذا نظرنا إلى الدروس المُقامة في المساجد نجد أنها في الغالب متفرّقة، ذات مستويات متفاوتة وطريقة التعليم فيها ما فيها في الغالب..

ولهذا **هنا اقتراح لَعَلَّهُ يتحقق**: أن هذه الدروس ينبغي أن تُرَتَّب، نحن عندنا هنا مثلًا هذه الدورات مُرَتَّبة، لكن الدروس التي في الأماكن التي تَعُجُّ بالشيوخ وبالدروس ومجالس العلم مثل الرياض أو القصيم، هذه لو أنها رُتِّبَت لكانت أنفع؛ يعني يوجد مثلًا في بعض المساجد يُوضَع برامج ويُتَّفَق مع الشيوخ أن هؤلاء يدرّسون للمبتدئين، وهذه العلوم والكتب التي يُدَرِّسُونها فمن

أراد يذهب إلى هؤلاء، وهؤلاء الشيوخ في هذا المسجد أو في المساجد في شرق وغرب البلد أو في شماله أو في جنوبه في هذا المسجد وهذا المسجد يُدَرِّسُون للمتوسطين، وهؤلاء الشيوخ يُدَرِّسُون للمتقدّمين ويقْصِدَهم الناس، وفي الفقه يجدون مثلًا إذا كان لا يستطيع أن يُدَرِّس إلا يومًا واحدًا يوجد خمسة أو ستة يُدَرِّسُون الفقه في هذا المسجد ويُقَسَّم عليهم أبواب الفقه.

فالطلاب الذين يأتون لا سِيَّما من خارج البلد يستطيع خلال أربع سنوات أن يُنْهِي جملة من الفنون والكتب.

فإذا ما تيسَّر هذا؛ يعني ما وُجِد من يقوم به وأرجو أن يوجد من يُرَتِّب هذا ويقوم به ويحتسب، ويحتاج إلى شيء من الإقناع، فإذا ما وُجِد فلا أقلَّ من أن يوجد بجوار الجامعة مثلًا مسجد تُقَام فيه برامج على المستويات الثلاثة، ويكون فيه مكتب للتوجيه أن هذه الكليات الشرعية الموجودة الذي يُدْرَس فيها هو كذا وكذا وكذا، والأشياء التي لا تُدْرَس كذا؛ أنت في هذه الكلية تحتاج كذا وكذا.

وتوجد فيه معلومات تُحَدَّث بحيث أنه تُعرف الدروس التي في البلد وأين وصلوا دائمًا في كل فصل دراسي، بحيث إذا جاء طالب جديد يُقال له: ماذا تريد؟ في الفقه نُوَجِّهُك إلى فُلان فدَرْسُه مُخْتَصر ومُبَّسَط وكذا، هذا يدرّس أربعة أيام بالأُسبوع وهذا يوم فَاحْضُر هنا واحضر هنا مثلًا، هنا من المعاملات وهنا من العبادات، وهذا الدرس مناسب لمستواك، وهكذا معلومات مُحَدَّثَة؛ هؤلاء يَدْرُسُون النحو ووصلوا إلى كذا، وذاك بدأ من أوله فاحضر هنا يومًا بالأسبوع وهنا يومًا بالأسبوع مثلًا، إذا كان العلم يحتمل ذلك ولا يعتمد آخِرُه على أولِه.

وهكذا أيضًا يعرفون أحوال الطلاب وما درسوا وما هي خلفيَّتهم، فيُوصَى كلُّ أحدٍ بحسبه..

ولكن الواقع أن الكثيرين مساكين؛ يذهب متحمسًا يجد دروسًا كثيرةً مُتفرِقَة قد بُدِأ بها من قبل ويحضُر عند هذا قليلًا وينقطع هذا الدرس ويحضُر عند هذا قليلًا، وتمضي أربع سنوات ولم يخرج بكبير طائل ولا يعرف طريقة في التَّعَلُم، وبَعْضُهم يظنُّ أن الدراسة في الجامعة أنها لمجرد أخذ الشهادة وأن الدراسة الحقيقية في المساجد، وهذ الكلام غير صحيح.

• كتب في طلب العلم

أخيرًا بعض الكتابات التي تجدون فيها كلامًا عن طلب العلم؛ هي كثيرة جدًا لكن أذْكُر جملة منها:

- [مقدمة المجموع] للنووي.
- [مقدمة ابن خلدون].
- [مدخل لمذهب الإمام أحمد] لابن بدران.
- كتاب [أَلَيْسَ الصبحُ بقريب] لابن عاشور، كثير من الأشياء قد لا تحتاج إليها؛ يتكلم عن أشياء قبل نحو مائة سنة أو أكثر تجاوزناها على بعض التَّحفُّظات على بعض القضايا.
- [أدب الطَّلَب ومُنتهى الأَرَب] للشَّوكاني.
- [تذكِرة السَّامع والمتكلِّم] لابن جَمَاعة.
- [جامع بيان العلم] لابن عبد البَّر.
- [تعليم المُتَّعَلِم طرق التَّعَلم] للزرنوجي.
- [حِليَةُ طالب العلم] للشيخ بكر أبو زيد.

وهناك كتب أخرى كثيرة جدًا لمعاصرين وغير معاصرين في هذا الباب..

وأشكركم على حُسن إنْصَاتكم وصبركم؛ وهذا ممّا يقتضيه العلم؛ الصبر!

..وصلى الله على نبينا مُحَمَّد..

انتهى بفضل الله تعالى

مع تحيات فريق مشروع التفريغ، لمزيد من المعلومات الرجاء زيارة هذا الرابط:

http://www.shbaboma.com/vb/forumdisplay.php?f=88